الفصل الثالث عشر

مذاهب وشخصيات

شهد النصف الثانى من القرن الثامن عشر ثورات حتمتها عوامل اقتصادية أساساً ، فقد اتبعت الحكومات الأوربية سياسة اقتصادية لتزيد رصيد الذهب والفضة عندها . ولذلك فقد رفعت المكوس الجمركية على البضائع المستوردة ، وخفضت الجمارك على الأغذية والمواد الأولية المستوردة . بل إن الحكومات الأوروبية المستعمرة حرمت على مستعمراتها صناعات تصنعها هى ، كما فعلت إنجلترا عندما حرمت على مستعمراتها الأمريكية ما تنتجه مصانعها ، بل إنها أجبرتها على شراء منتجاتها أولا تبيع موادها الخام إلا لها .

كانت العوامل الاقتصادية أسباب الثورات ، وساعدتها الظروف السياسية والدينية على اندلاعها ، فقد قامت الثورة الأمريكية احتجاجا على فرض ضرائب دون تمثيل نيابى ، واحتجاجاً على القيود التى فرضت على حرية التجارة . كانت ثورة بورجوازية ضد الفئة المستغلة .

وفى فرنسا كان الاقتصاد إقطاعياً ، فكان للملك خمس الأرض ، وللنبلاء خمس آخر ، وللكنيسة خمس ثالث ، ولبقية أفراد الشعب خمسان . وكان للأشراف ورجال الكنيسة سلطات ، فلم يكن من حق الفلاح أن يطحن حبوبه إلا فى مطاحن السيد النبيل ، ويزرع بأمره ، ويخبز خبزه فى مخابز السيد ، وتبيعه الدولة الملح بالسعر الذى تحدده . والموت عقوبة من يخالف الأوامر . وأعفى النبلاء ، ورجال الدين من الضرائب ، وفرضت ضرائب باهظة على الفلاحين والعاملين ، وحاربت فرنسا انجلترا حروباً طويلة أثقلت على الطبقات الكادحة .

وتكون المجتمع الفرنسى من طبقات : فى القاعدة العريضة عاطلون فقراء أصبحوا بالضرورة مجرمين ، وفوقهم طبقة عاملة من فلاحين وخدم وعمال

غير مهرة ، ومن هاتين الطبقتين تكون ثلاثة أرباع سكان فرنسا قبيل ثورتها الكبرى عام ١٧٨٩ . فوق الطبقة الثانية كانت طبقة صغار التجار وصغار رجال الدين وفقراء النبلاء والفلاحون (الأغنياء) ، وهؤلاء كونوا الطبقة المتوسطة الدنيا ، أما الطبقة المتوسطة العليا فكان قوامها أصحاب المهن الراقية وكبار الموظفين والتجار وأصحاب المصانع . واقتصرت الطبقة العليا على العائلة المالكة والنبلاء وكبار رجال الدين وهؤلاء كونوا مجتمع الـ ٢م ، وكان عددهم نصف مليون من مجموع السكان ، وكان ٢٠ مليونا .

وقد تعب الناس فى أوروبا من امتيازات رجال الدين وتسلطهم وخرافاتهم البعيدة عن تعاليم الدين ، بل ومن التعصب الدينى والنزاعات بين المال ، وكان لكل دولة كنيستها ومذهبها ، كالإنجيلية فى إنجلترا ، والكاثوليكية فى فرنسا . ولكل مستعمرة أمريكية مذهبها . وتتعصب الدولة لكنيستها فتمنحها امتيازات وتعرض على غير أتباعها التزامات ، بل تعذيباً وأحياناً طرداً من أراضيها ، ووصل الأمر فى المستعمرات الأمريكية إلى المذابح الوحشية .

ونمت النزعات الوطنية والقومية ، ولعل أنبلها وأعمقها ديموقراطية نادى بها جون لوك ، وروسو ، وجيفرسون ، وتحققت فى فرنسا وأمريكا . فقد أخضعت الكنيسة للدولة . وجعلت أرض الوطن أساس الوطنية الفرنسية . ونما ولاء لعلم الدولة وأناشيدها وأعيادها . وتحررت المدارس من سلطات رجال الدين ، بل إن أمريكا أخرجت دروس الدين من مدارسها . وقصرتها على الكنائس . وأصبحت المثل القومية أهدافا أساسية فى التعليم العـــام .

وإذا كانت الديموقراطية سياسة الحكومة ، فان القومية إحساس يربط الجماعات والطبقات برباط وثيق . وقد نما هذا الإحساس تحت أنظمة متحررة وأنظمة متسلطة . ويذكر أن من الفلاسفة كانت Kant وفخته Fichte أملا فى دولة عالمية . وعارضا فلاسفة النزعة القومية . وبعد هزيمة الألمان فى موقعة يينا (١٨٠٦ (على يد بونابرت ، تحول فخته إلى حماس للقومية . ورأى أنها خطوة أساسية للعالمية . وآمن فخته بأن للدولة غرضاً مقدساً ،

وأن الوطنية واجب دينى ، وأن الألمان جنس نقى ، لهم لغة وثقافة منقاة ، وأنهم أكثر شعوب الأرض تدينا ، وأكثرهم قدرة على الوطنية الحقيقية . . . ومهد فخته لاتجاهات تبلورت فى حكم النازى .

ورأى هيجل Hegel الألمانى أن الدولة تنقل إلى الأفراد إرادة الله ، وأن الدولة الألمانية لن تحقق مصيرها المقدس إلا بتحطيم الفردية والاتجاهات المتحررة ، وأن الدولة هى الحقيقة المطلقة . وليست هناك ، فى رأيه ، ذات فردية ، بل ذات قومية . وعلى الفرد أن يخضع ويطيع الدولة . وأن البقاء للأصلح . وقد تأثر كارل ماركس بفكرة هيجل القائلة بأن التاريخ عملية كفاح وتغير ، فالقوة التقدمية فى أية مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى تصبح رجعية فى مرحلة تالية . وأن انتصار دولة على أخرى معناه أن المنتصرة أصبحت تحمل الروح المقدسة ، التى تنتقل من ذات قومية إلى أخرى . وقد تأثر موسولينى بفلسفة هيجل ، ولكن هذه الدعاوى لم يقدر لها أن تثبت . فان الدول أصبحت تعتمد بعضها على بعض اقتصادياً .

فمنذ ١٧٥٠ فصاعداً حدثت ظاهرة اقتصادية عرفها التاريخ تحت اسم « الثورة الصناعية » . فقد كانت التجارة مسيطرة على الصناعة ، ثم سيطرت الصناعة على التجارة ، وبعد قرن واحد من الزمان أصبحت الثورة الصناعية حقيقة ثابتة مؤثرة . وقبل منتصف القرن الثامن عشر اعتمدت الصناعة على أنشطة العائلات ، فالعائلة تشترى الأدوات والمواد الخام وتصنع . وحدث أن أصلح انجليزى من جلاسجو إسمه جيمس وات Jamep Watt عام ١٧٦٠ نموذجا لآلة بخارية اخترعها عبقرى إسمه نيوكومين Newcomen حوالى سنة ١٧٠٠ . وفى عام ١٧٨٥ استخدمت الآلة البخارية فى صناعة النسيج (١) .

---

(١) Robinson and Smith, op. cit., pp. 358 – 359 .

وعملت الثورة الصناعية بعد أن انتشرت المصانع وعلت المداخن ، على إسراع نمو الرأسمالية ، وتكدس المدن بالسكان ، وخلقت عادات واتجاهات جديدة فقد زاد الطلب على إشراف الدولة على التربية ، بعد أن أصبحت التلمذة الصناعية على يد (الأسطى) فى المصنع اليدوى غير مجدية ، وتطلبت المصانع التى تعمل بالبخار صناعا مهرة ، كما أن المناهج تأثرت بالثـــورة الصناعية فازداد الاهتمام بالعلوم التى لم تعد معرفة مسلية (١) . ثم انتشرت الآلات البخارية بعد عام ١٨٥٠ . ثم دخل البترول والكهرباء كمصدرين للقوة . وبدأ عصر الآلات .

ومع التقدم الصناعى بدأ العمال يطالبون بتشريعات لحمايتهم ورعايتهم ، وقد سمح باتحادات العمال فى انجلترا بعد عام ١٨٢٤ ، وفى فرنسا بعد عام ١٨٨٤ . وفى ألمـــانيا نظم الحزب الديموقراطى الاشتراكى سنة ١٨٦٣ . ثم أسس ماركس فى العام التالى جمعية العمال الدولية . وعمل بسمارك فى سبيل اشتراكية الدولة الألمانية كوسيلة لتحطيم محاولات الحزب والجمعية . وكلاهما منصف للعمال ومطالبهم .

الحركة الواقعية

ومع هذه التغيرات فى حياة المجتمع ، ظهرت مذاهب فلسفية وتربوية نلمسها اليوم فى الأنظمة والاتجاهات التربوية . وسوف أتعرض لبعض هذه المذاهب وشخصياتها فى الصفحات القادمة .

تعرضت فى صفحات سابقة للحركة الإنسانية . ووضحت كيف أن المذهب الإنسانى اتخذ رغبات وميول الإنسان موضوعا له . وبينت ثورته على جمود واتجاهات العصور الوسطى ، وقد ظهرت فى عصر النهضة حركة إحياء اللغات والآداب الكلاسيكية وكل ما يتعلق بالإنسان من لغة وأدب وتاريخ . ولكن الظاهر أن الاهتمام بالشكل أغفل المضمون . وضاعت القيم العملية للمواد التى يدرسها المتعلمون .

---

(١) Brubacher, op. cit., pp. 85 – 95 .

وظهرت حركة قوامها الاهتمام بالجوانب العملية فى التربية ، والاهتمام بالمضمون فيما يدرسه المتعلمون . ولم يعترض أنصار هذه الحركة وهم الواقعيون الإنسانيون Humanistic Realists على المواد الإنسانية، ولكنهم حددوا من مداها ، فقللوا مثلا من دراسة النحو اللاتينى ، مكتفين بالقدر اللازم للتذوق الأدبى . واهتموا بالمعرفة ، ومصادرها فى رأيهم فى مخلفات الأقدمين المدنية والدينية . وفى هذا يقول مترو . . « ولقد اتفق الإنسانيون الواقعيون مع الإنسانيين الكلاسيكيين المحدودى الأفق فى أن اللغات والآداب الكلاسيكية القديمة هى الهدف الوحيد للدراسة ، وعلى الأقل الوسيلة الوحيدة للتربية . وكان منهج الدراسة لدى الفريقين يتكون من هذه اللغات وآدابها وكانت هذه اللغات وآدابها فى نظر الفريقين تمثل أرقى ما وصل إليه العقل البشرى ، وتشتمل على أغزر ما أنتجه الذكاء الإنسانى . وليس هذا فحسب بل إنها تشمل أيضاً كل ما هو جدير بأن يعنى به الإنسان . . ولكن يوجد فرق جوهرى بين هاتين الفئتين فالمذهب الإنسانى الكلاسيكى كان يهدف إلى الغاية اللغوية والأدبية التى تتحقق عن طريق لاتينية شيشرون ، وغايته هو إنتاج شباب رومانى جديد ، وخلق لاتينية جديدة . أما الإنسانيون الواقعيون فكانوا يهدفون إلى التوصل لمعرفة الدوافع الإنسانية ، ونظم الحياة البشرية والحياة وارتباطها بالطبيعة . . . وهدف الإنسانيون الواقعيون إلى السيطرة التامة على جميع مرافق الحياة المحيطة بهم طبيعياً واجتماعياً عن طريق تعرف حياة القدماء فى نطاق أوسع . . (١) .

وكان الإنسانيون الواقعيون أحد وجهين للحركة الواقعية ، أما الوجه الثانى فقد بدأه فرنسيس بيكون الذى وجد فى الطبيعة ومظاهرها مضمون الدراسة والبحث . فبدلا من الحقيقة التى توجد بين صفحات الكتب ، فإنه بحث عنها فى قوى وقوانين الطبيعة . ويعرف هذا الوجه من الحركة الواقعية

---

(١) مترو : (المرجع الأسبق) ص : ١٠٩ - ١١٠ .

باسم الواقعية العلمية Scientific Realism التى كانت بداية الحركة العلمية فى التربية فاستخدمت اللغات أدواتاً للمواد . وصمم المنهج بحيث يحتوى على الحكمة العالمية Pansophia ، على أمل أن إلمام المتعلمين بقدر كاف من المعارف يمهد الطريق لنظام اجتماعى جديد (٢) .

وسوف أتعرض لوجهى الحركة الواقعية من خلال بعض للشخصيات .

الواقعية الإنسانية

رابيليه PaanÇois Rabelais (١٤٨٣ — ١٥٥٣) .

كان رابيليه راهباً وطبيباً فرنسياً ، وقد طرد من الدير ، ويعد من خير من يمثلون الواقعيين الإنسانيين . ودرس على البندكتين ، ثم على الفرنسيسكان ، على أنه فى معظم حياته كان جوالا لا يستقر فى مكان واحد . وقد تهكم رابيليه على الشكلية التافهة التى سادت عصره . وانتقد فى سخرية لاذعة منهج التربية القائم على دراسة الألفاظ والكلمات مستبعداً دراسة الحقائق الحيوية . واهتم بالتربية التى تشتمل على العناصر الاجتماعية والخلقية والدينية والجسمية ، وهو يؤمن بدراسة الكتب ، على أن تطبق حقائقها تطبيقاً فعلياً فى الحياة .

وأكد رابيليه ضرورة استخدام الملاحظة فى التدريس ، وأن تربط الدراسة بالحياة . كما اهتم بالتربية الرياضية ، وبعدم القسوة فى النظام . وتعتبر آراؤه واقعية وإنسانية فى وقت واحد ، وقد تأثر بها كثيرون منهم مونتين ولوك وروسو . وقد عبر رابيليه عن آرائه التربوية فى أحاديثه الساخرة التى كتبها عن بطل خرافى ذى قوة جبارة هو جارجانتوا . فمنذ مولده إلى سن الثالثة تعلم رجانتوا على يد والده النظام والأخلاق . . « وأمضى السنوات الثلاث كما يمضيها كل الأطفال ، أى فى الشرب والأكل والنوم ؛ فى الأكل والنوم والشرب ؛ فى النوم والشرب والأكل » . وفى سن الخامسة عهد به أبوه إلى واحد من الفطاحل الأساتذة الجهابذة الأستاذ الدكتور السفسطائى هولوفرن الذى علمه حروف الهجاء حتى اتقنها جارجانتوا

---

(١) McCormiek, op. cit. p. 435

واستطاع تسميعها من آخرها إلى أولها ، واستغرق ذلك خمس سنوات وثلاثة أشهر ، ثم أقرأه بعض الكتب غير المفيدة حتى كان عمره ثلاث عشرة سنة وستة أشهر وأسبوعين . ثم استغرق ثمانى عشرة سنة وأحد عشر شهراً فى قراءة كتاب واحد . ثم مات أستاذه ، وجاءه أستاذ آخر الذى علمه حتى أصبح جارجانتوا حكيما كأى شىء خبز فى الفرن . . . ثم اكتشف أبوه أنه درس كثيراً ، ولكنه لم يتعلم شيئاً ، وقارن بينه وبين صبى تربى بأسلوب حديث ولم يبلغ الثانية عشرة من عمره بعد ، ووجد أن ابنه مغفل غبى جاهل أمام الصبى .

ثم تعلم جارجانتوا على يد مؤدب يستخدم الطرق الحديثة . وكان هذا المؤدب مختلفاً عن المؤدبين السابقين ، فهو لطيف وذكى ، يتخير الظروف الملائمة للتدريس ، ويستخدم اللعب والتدريبات ، ويوجهه إلى الملاحظة . وأحب جارجانتوا الحساب لأنه درسه بطريقة لطيفة .

وأرسل جارجانتوا رسالة إلى ابنه جريويل . وفيها عبر رابيليه عن آرائه فى التربية .

الواقعية الحسية

فرنسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١ — ١٦٢٦)

كانت ولادة بيكون بلندن عام ١٥٦١ فى بيت من بيوت الرئاسة من جانبى أبيه وأمه ، فكان أبوه السير نيقولاس بيكون حامل أختام الملكة فى عهد اليصابات وأمه ابنة السير أنتونى كوك الذى كان مربياً لإدوارد السادس وركنا من أركان الإصلاح الدينى فى زمانه (١) . وتلقى بيكون تعليمه فى طفولته على يد مربين خاصين ثم التحق بكلية ترينتى فى كامبردج ، فى سن الثالثة والعشرين انتخب عضواً فى البرلمان . وبدأ اسمه يلمع كمتكلم وكلتب . وتقرب من الملكة ، ولكنه لم يصب نجاحا . على الرغم من مساعدة صديقه الحميم اللورد اسكس المقرب منها . وقد فتحت الملكة آذانها للوشايات ضد

(١) عباس محمود العقاد : فرنسيس باكون ، ص : ٢٢

اللورد الذى أحبه الشعب فعهدت إليه بمهمة ولاية إيرلندا فى أحرج الأزمات .

وانتهى عهد اليصابات ، وأقبل عهد جيمس الأول ، وظل يترقى بيكون فى المناصب حتى وصل إلى منصب قاضى القضاة عام ١٦١٨ ، وكثر تزلفه وتملقه للملك . وعرف عنه أنه كان يقبل الرشاوى والهدايا ، وقد حدث أن تقبل رشاوى من طرفين فى خصومة ، وحكم لأحد الطرفين ، فثار الطرف الآخر ، وتألب عليه عدد كبير من الموتورين . وجرى تحقيق مع بيكون ، فاعترف . وظهر فساده على الملأ ، ولكن الملك كان يسانده ... وقال المتعذرون لبيكون القاضى الفيلسوف إنه كان يحكم بالعدل لأنه كان يقبل الهدايا من الطرفين .. وحكم عليه بالعزل من المناصب العامة وتحريم النيابة والولاية . ومات عام ١٦٢٦ .

ولم يكن بيكون مبتكراً لأفكار جديدة ، ولكنه لخص جميع الاتجاهات التى نشأت فى عصر النهضة معارضة لوجود أى سلطة خارجة على الحياة العقلية ، ومحبذة اكتشاف حقائق عالم الظواهر الطبيعية ، وعالم الفكر . وجعل بيكون الفلسفة أو العلم ، أو الحياة العقلية بوجه عام هدفاً جديداً . فقد رفض تكديس المعلومات النظرية ، وأكد الاهتمام بالغرض العملى النفعى . فقال عن المعارف القديمة ... « إن الفلسفة والعلوم العقلية القديمة مثلها مثل التماثيل تزين ويحتفل بها . وهى تشبه هذه التماثيل أيضاً من حيث أنها لا تتحرك من المكان الذى وضعت فيه (١) » . وقد قارن بيكون بين الفلسفة القديمة والفنون الميكانيكية العملية النافعة التى تنمو وتسير فى طريق التقدم والكمال يوماً بعد يوم لأن لها أغراضاً عملية نفعية .

---

(١) Ulich, op. cit., p. 195

وليكون هدفان وراء كل دوافعه وإنتاجه ، والهدف الأول هو تحويل العلم إلى منفعة بنى الإنسان ، والهدف الثانى هو تطوير طريقة الاستقراء فى البحث لتساعد الإنسان على إخضاع الطبيعة لإرادته والسيطرة عليها . وكان بيكون يرى أن كل المحاولات الفلسفية والعلمية إنما هى محاولات تخمينية ، لأنها قبلت أحكاماً غير مؤكدة ، وجعلتها أسساً تبنى عليها . وقد حدثت تغييرات فى الاتجاهات منذ العصور الوسطى أو حتى منذ إيرازمس مؤدية إلى طريق التجريب ، وعبر بيكون عن ذلك فى احتقاره لأرسطو وللإغريق عامة فيقول : « إنهم تكلموا كثيراً و عملوا قليلا ، وكانت حكمتهم ثرثرة غير مجدية ولا منتجة » .

ويرى العقاد أن بيكون لم يكن أول من علم الناس منفعة العلم فى خدمة الإنسان ولا أول من أقامه على أساس التجربة والاستقراء ، ولا يقدح ذلك فى فضل رسالته لأن أصحاب الرسالات الفكرية جميعاً يصدق عليهم ما يصدق عليه .. « ولكنه وحده قد اهتدى إلى الموضع من الحقائق الحرى بالتوكيد والتقرير ، وبشر بالفكرة التى يستدعيها الزمن الحاضر والزمن المستقبل من بعده . وكانت بحق طليعة الكشوف الموالية فى العلم الحديث » .

لقد نادى بيكون بأن المنفعة غاية المعرفة الإنسانية ، وأن الأقيسة مضلة للعقل فى تيه الغرض والتخمين ، نادى بهذا فى زمن كان الناس فيه يحتقرون الانتفاع بالعلم لاعتقادهم أن الآخرة هى محور كل علم ، وأن الزهد فى الدنيا صفة العلماء .

ولم يرفض بيكون الأقيسة برمتها ، فقد اعتبر الطريقة القياسية « توقعاً للعقل » وأنها تستخدم ولكن فى حدود . أما طريقة الاستقراء فهى الموصلة إلى تقرير درجة التأكيد ، وهى التى تستخدم فى الكشف عن العلم ، فى ترجمة الطبيعة ، وبهذه الطريقة يسيطر الإنسان على الطبيعة . ويرى بيكون أن العلم والسعادة البشرية صنوان ، ولا حد لمثل هذا العلم وتلك السيطرة ، والإنسان

---

(١) عباس العقاد المرجع الأسبق . ص : ٥٨-٥٩ .

إن هو إلا خادم ومترجم للطبيعة فكل ما يصدر عنه ، بل كل ما يعرفه وتحصل عليه نتج عن ملاحظته نظام الطبيعة ، فى الحقيقة أو فى تفكيره (١) . وفيما عدا هذا فانه لا يعلم شيئاً ولا يمكنه القيام بشىء ، لأن سلسلة الأسباب لا يمكن لأية قوة فصم عراها ، ولا تمكن السيطرة على الطبيعة إلا بالخضوع لها . وعلى ذلك فان موضوعى المعرفة البشرية والقوة البشرية يلتقيان فى الواقع فى نقطة واحدة ، والسبب فى فشلنا فى العمل هو جهلنا بالأسباب (٢) .

وفى رأى بيكون أنه لابد للعقل البشرى من التخلص من عوائق البحث الصادق والملاحظة الرشيدة ، وقد أطلق على هذه العوائق إسم Idols أى الأصنام أو الأوهام (ويسميها العقاد الأوثان) . وهى هذه العقائد والموروثات التى تنحرف بالإنسان عن قصده وتميل به إلى السخف والضلال . وقد عبر عنها فى كتابه Novum Organon (القسطاس الجديد أو القانون الجديد) . وقسم بيكون الأوهام إلى :

١ — أوهام القبيلة (وتسمى أحياناً أوهام الجنس) وهى الأوهام التى تصور الأشياء على صورة سابقة لا برهان عليها من التجربة والمشاهدة .

٢ — أوهام الكهف ، فكل إنسان محصور فى كهف من كهوف الوراثة أو النشأة أو علل الفطرة ، وأوهام الكهف هى الميول الشخصية الفردية .

٣ — أوهام السوق ، وهى شر الأوهام ، وتنتج عن العادات والتقاليد الاجتماعية ، وما يتبعه الإنسان فى علاقاته .

٤ — أوهام المسرح وهى تلك الأوهام التى تسربت إلى عقول الناس من آراء وأقوال وقضايا الفلاسفة وأخطائهم فى القياس والأحكام .

وعبر بيكون عن آرائه أيضاً فى كتابه New Atlantis (الأطلانتس الجديدة أو طوبى الجديدة) . وذكر فيها عن القارة الضائعة التى أشار إليها أفلاطون فى أحلام الفلسفة .

---

(١) Eb, op. cit,. p. 158
Ulich, op. cit., pp. 165-160

(٢) منرو : (المرجع الأسبق) ص ١٤٧ .

وعن آرائه فى التربية تراه يتهكم على الكلاسيكيات فيقول إنه لا يشرفنا أن تقف الحدود العقلية عند اكتشافات القدماء ، ولذلك فيجب أن تتجه الدراسة نحو الطبيعة وكنهها . والمعرفة المشتقة من الطبيعة هى الصالحة للدراسة ، وهى تأتى بطريق الحواس ، وهى الحقيقة المثمرة ، وإذا كانت هذه هى مواد الدراسة فاننا نجده يحتم تناولها بطريقة جديدة هى الانتقال من دراسة الجزئيات إلى القواعد والمبادىء العامة .

ويلخص موقف بيكون فى أنه رأى وجوب إعادة تربية الإنسان بطريقة علمية ، وسوف ينشأ نظام اجتماعى جديد مؤسس على البحث العلمى فى مظاهر الطبيعة باستخدام الاستدلال الاستقرائى . ويرى أن العلم قمين أن يحسن ظروف الحياة المادية ويسعد الناس ويعمل على رفاهيتهم .. وإذا استطاعت المدارس أن تنشر المعرفة فان هذا سيؤدى إلى حل المشكلات التى حيرت البشرية . وفى خطته التربوية آمن بأن المعرفة قوة ، و أنه إذا تحسنت معارف الناس تحسنت أحوالهم . ولم يرفض الإلهام الإلهى . ولكنه رفض أن يلعب أى دور فى التربية ، فكل ما يدور فى حلبة التربية يجب أن يؤسس على المعرفة العلمية .

وليس من شك أن آراء بيكون ترددت قوية ساطعة خلال القرون الثلاثة الماضية ... منذ أيامه إلى وقتنا هذا .

كومنيوس John Amos Comenius (Komensky) (١٥٩٢ — ١٦٧٠)

يعرف عن جون آموس كومنيوس أنه أكثر المتأثرين بآراء بيكون ، بل أكثرهم تطبيقاً لها . ففى خط حياته كمدرس وكاتب طبق المبادىء البيكونية المتصلة بالبحث عن الحقيقة . وقد تمتع كومنيوس بشهرة كبيرة إبان حياته حتى أنه استدعى من مورافيا مسقط رأسه إلى لندن للإفادة بآرائه . واتجه كومنيوس البروتستانتى المتعصب إلى العمل فى القيادات الدينية مع اهتمامه بالتربية ...

وعاش حياة شهد فيها ألواناً من القسوة والاضطهاد ، إلا أنه لم يدع المرارة تسرى إلى قلبه ، بل رأى نفسه مواطناً عالمياً . لقد أحب بلده ولكنه

أحب أكثر أن تكون جزءاً من مجتمع مسيحى عظيم ، وهو بهذا يختلف عن إيرازمس الذى احتقر الصفات واللغات القومية . فى حين أن كومنيوس آمن بضرورتها وأهميتها ، فهو نادى بعالمية مؤسسة على الحب والفهم الذى يضم الشعوب ووحدة البشر كأجزاء فى ثقافة المسيحية .

وقد أثرت خبرات حياته فى تلوين عقيدته التربوية وفلسفته . وظهرت جلية فى مؤلفه Great Didactic « المرشد العظيم » . الذى كتبه عام ١٦٣٢ باللغة التشيكية ثم نشر باللاتينية (١) . ويتكلم عن القوة الأساسية فى العملية التربوية ، ففى الفصل الثانى يرى أن الحياة فى حالة نمو مستمر ، والإنسان على رأس المخلوقات لأنه قادر على فهم عمل الله وحكمته ، وهو صورة الله .

ويعتبر كومنيوس ، فى تطور الفكر التربوى . أول الواقعيين الحسيين ، وهذا الاعتبار فاسد إذا حكمنا على كومنيوس من زاوية فلسفته المشبعة بالزهد والتدين وهى على النقيض من الاتجاهات التجريبية البيكونية .

ويميز كومنيوس ثلاث مراحل لإعداد الإنسان لدوره البارز فى العالم الطبيعى المقدس ، فيقول فى الفصل الرابع من كتابه « المرشد العظيم» إن الإنسان وضع بين الكائنات (المرئية) ليكون : كائناً عاقلا ، وسيداً لكل الكائنات ، وصورة لخالقه . وفى هذه المظاهر الثلاث أساس الحياة الحاضرة والمستقبلة . وعلى هذه الأسس قامت آراؤه التربوية . فلكى يقوم الإنسان بدوره العاقل فى هذا العالم فعليه أن يلم بالمعرفة كلها ، ولكى يسود الكائنات فيجب أن توهب له القوة على نفسه وعلى الأشياء ، ولكى يعد لرسالته الدينية فيجب أن يتعلم كيف يكل نفسه وكل شىء على الله ، مصدر كل شىء ، فالتربية تهدف إلى المعرفة والفضيلة والتقوى .

ولكى تتحقق هذه الأهداف ، فى رأى كومنيوس ، فيجب اتباع فلسفة

---

(١) مادة آراء كومنيوس فى التربية وفلسفته مأخوذة أساساً من كتاب Ulich، Prics السابق الإشارة إليهما .

بيكون القائلة بأن الإنسان يطيع الطبيعة ليسيطر عليها ، ولكن كومنيوس يضيف مفهوماً قديماً عن الطبيعة جاءه من شيشرون وسينيكا ، هو المفهوم الفلسفى — الأخلاقى ، ومؤداه طبيعة الإنسان قبل أن يقترف الخطيئة الأولى الكبرى ، فالإنسان الطاهر هو نقطة البداية .

هذا ، و تلخص أهم آراء كومنيوس فى النقاط الآتية (١) :

١ — عن طبيعة الكائن البشرى : يقول إن المناشط البشرية تختلف من فرد لآخر ، ولكنها تندرج تحت ثلاثة أنواع رئيسية ، فكل إنسان يتغذى ويحس ويفهم بطريقته . واعتماداً على مصادر إغريقية ورومانية يقول كومنيوس إن الناس محكومون بثلاثة مبادىء أو نفوس أساسية : النباتية والحيوانية والعاقلة والنباتية تغذينا وتنمينا ، والحيوانية تجعلنا ندرك الأشياء بحواسنا ، والعاقلة تهدينا لمعرفة الحقيقة والتصرف فى المواقف المختلفة . والنفس العاقلة قوامها العقل والإرادة والعاطفة ، فالعقل يعرف ويميز ، والإرادة قوة تجعلنا نعمل والعاطفة تجعلنا نرغب ونتخير . وعند الإنسان الكامل نجد اتساقاً وانسجاماً بين هذه النفوس أو القوى الثلاث . وهو ما كان موجوداً قبل الخطيئة الكبرى.

والإصلاح ممكن ، ولكن بذوره لا تنمو منفصلة عن المجتمع وعن التعليم الدينى . فالإنسان يتعلم الكلام والحكم على قيم الأشياء باحتكاكه مع أفراد المجتمع ويجب أن يتشبع المجتمع بالاتجاهات الدينية حتى نجد الفرد الناشىء أمامه نموذجاً صالحاً . فالفرد بحياته فى مجتمع صالح ويتربى تربية دينية صالحة سوف تتحقق له المعرفة والفضيلة والتقوى .

٢ — فى مراحل التربية ... وهذه تتم فى المجتمع الصالح .

(أ) خلال السنوات الست الأولى : تنمو حواسه ، وعن طريقها يدرك بيئته ويسمى هذه المرحلة بمدرسة الأم ، وفيها تعلم الأم الطفل كيف يتكلم ويلاحظ الطبيعة .

---

(١) محاولة التلخيص ، أرجو ألا تؤثر على الأفكار ، ولكن المقصود إلقاء بعض الأضواء فى عجالة عن الفكر عند كومنيوس .

(ب) من سن ٦ — ١٢ سنة يمضيها الطفل فى المدرسة الابتدائية التى تعرف باسم مدرسة اللغة القومية . وقد ألف كومنيوس مجموعة كتب لهذه المدرسة باللغة التشيكية . وهذه المدرسة عامة لكل الأطفال ، وتعلم القراءة والكتابة باللغة القومية ، والرسم ، والحساب ، والغناء ، والتاريخ ، والجغرافية والدين .

(ج) من سن ١٢ — ١٨ سنة يمضيها الفتى فى (المدرسة اللاتينية) ، وفيها يتعلم التلاميذ أربع لغات هى اللغة القومية واللاتينية والإغريقية والعبرية ، والفنون العقلية الحرة السبعة ، ومواد أخرى تؤهلهم للدراسة الجامعية .

(د) من سن ١٨ — ٢٤ سنة وتقضى فى دراسة جامعية . وفى هذه المرحلة تنبثق الإرادة . وغرض الجامعة تدريب الشاب على البحث ، وتزيد التخصص فى المعرفة ، وتعد للمهن كالطب والقانون . وعلى الطالب أن يدرس مواد كثيرة جمعها كومنيوس فى ثلاثة كتب هى : البانسوفيا Pansophia وفيه الحقائق العامة عن الطبيعة والإنسان والله ، والبانهستوريا Panhistoria وفيه حقائق خاصة تؤيد ما جاء فى البانسوفيا ، والباندوجماتيا Pandogmatia وفيه تتجمع كل الآراء والأفكار الصائبة وغير الصائبة المتعلقة بالموضوعات التى كتبت فى البانسوفيا ، أو معظمه ، ولكن أصول الكتاب ضاعت فى خضم المعارك بين البروتستانت والكاثوليك ، ولم يطبع .

٣ — عن العملية التربوية : إذا اتبعنا الطبيعة ، فمن الممكن أن تكون العملية التربوية سهلة (١) .

(أ) إذا بدأت فى سن مبكر ، قبل أن يفسد العقل .
(ب) إذا كان العقل مستعداً لها .
(ج) إذا بدأت من العام إلى الخاص .
(د) ومن السهل إلى الصعب .
(هـ) إذا لم يدرس التلميذ مواداً كثيرة .

---

(١) Ulich, op. cit., op. 194 (من الفصل السابع من « المرشد العظيم »).

(و) إذا تمشت مع عقلية المتعلم وطبيعتها .

(ز) إذا تعلم التلميذ كل شيء عن طريق حواسه .

(ح) وعرف المتعلم فائدة كل ما يتعلمه .

(ط) إذا سار التعليم فى طريقة واحدة .

٤ — الكتب المدرسية : اهتم كومنيوس بتأليف كتب مدرسية يستخدمها المتعلمون ، وشرح الأهمية العلمية لاستخدام هذه الكتب . ثم يعطى كومنيوس أصولا لاستخدام هذه الكتب حتى تنجح نجاحاً ملحوظاً ، ويعزى إليه أنه بدأ حركة « الكتاب المدرسى » . أما عن أشهر الكتب التى ألفها فهى كتاب « باب اللغات المفتوح » وهو لتعلم اللغة اللاتينية .

٥ — عن طريقة التدريس : وضع كومنيوس أصولا لطريقة التدريس ، وقد تأثرت طرق التربية الحديثة بهذه الأصول بعد أن أضفت عليها من الصبغة العلمية ما جعلها أكثر نفعاً . وقد حدد كومنيوس هذه الأصول فى :

(أ) كل ما لابد أن يعرفه الطفل يجب أن يتعلمه ويكون التعليم بعرض الشيء أو الفكرة مباشرة على الطفل ، لا بعرض نموذج الشيء أو رمزه .

(ب) كل ما يعلم يجب أن يعلم على أنه ذو قيمة عملية فى الحياة اليومية ، وذو فائدة معينة .

(ج) كل ما يعلم يجب أن يعلم بطريقة مستقيمة لا عوج فيها ولا تعقيد .

(د) كل ما يدرس يجب أن نشير إلى طبيعته الحقيقية وأصله — أى أسباب وجوده .

(هـ) عند دراسة موضوع ما يجب شرح مبادئه الأولية أولا ، ثم نذكر بعد ذلك التفاصيل .

(و) يجب أن تعلم كل عناصر الموضوع دون استثناء ، مع بيان ترتيبها ومكانها وعلاقتها بعضها ببعض .

(ز) يجب أن ندرس كل شيء ، ولا نعلم أكثر من موضوع واحد المرة الواحدة .

(ح) يجب ألا نترك موضوعاً دون تفهمه تماماً .

(ط) يجب أن نؤكد الفروق التي توجد بين الأشياء المختلفة حتى تكون معرفة الإنسان عنها واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

لقد حاول كومنيوس أن يقيم طريقة تربوية فى الاتجاه العلمى مع الاحتفاظ بالهدف الدينى ، وقد نجح فى هذه المحاولة نجاحاً يستحق التنويه . ولقد تأثر المربون فيما بعد بالكثير من آرائه ، فبستالوتزى اهتم بالملاحظة ، ملاحظة الطبيعة وطورها إلى خدمة التربية بصورة فعالة ، كما عرض روسو بعض آراء كومنيوس التربوية فكان لها صدى عميق فى وقته . واستفاد بازيدو Basedow من فكرة كومنيوس عن استخدام المحسوسات والرسوم فى التدريس . وعلى العموم فان الكثير من مبادىء كومنيوس قد أظهرها اللاحقون من المربين بطريقة شعورية أو لا شعورية فى معرض كلامهم عن تدريب الحواس ، والربط ، والطبيعة ودراستها وملاحظتها .

جون لوك John Locke (١٦٣٢ — ١٧٠٤)

عاش لوك خلال فترة من الانقلابات السياسية فى انجلترا وقد شهد الثورة ضد شارل الأول ، وضد كرومل ، وعودة شارل الثانى وتولية وليم ومارى . وقد ولد فى عام ١٦٣٢ وتلقى تعليمه فى سنى حياته الأولى فى البيت تحت إشراف والده ، وفى سن الرابعة عشرة التحق بمدرسة وستمنستر ، ثم بكنيسة المسيح فى أكسفورد حيث أجرى تجارب فى الكيمياء وقرأ للفيلسوف ديكارت وقد درس الطب ولكنه لم يعمل طبيباً . وقد عمل مع بعض السياسيين ذوى النفوذ ، واضطر فى وقت إلى الالتجاء إلى هولندا ، وبقى بها ست سنوات إلى سنة ١٦٨٩ . وفى عام ١٦٩٣ نشر كتابه بعض أفكار عن التربية

"Some Thoughts Concerning Education" ويستكمل فى هذا الكتاب آرائه التى أوردها فى كتابين سابقين هما « مقـال عن الفهم البشرى » An Essay Concerning Human Under-standing ، و « سلوك الفهم » The Conduct of the Understanding.

وقد انتشرت آراء لوك وتردد صداها ، فى حين أن آراء كومنيوس لم تجد مثل هذا الصدى لمدة قرنين على الاقل . ولعل السبب كما يراه يوليك أن لوك قدم للقرن الثامن عشر مزيجاً رائعاً للتقدم والرجعية . وقد أعجب هذا المزيج المستنيرين وخاصة من بين الإنجليز . وقد أعطى لوك صورة للرجل المثالى ، وجذبت الصورة أنظار الكثيرين فأقبلوا عليها .

وتوصف الشخصية المثالية بأنها متحررة من قيود السياسة والدين ، بعيدة عن القيود التى توارثها النبلاء وطبقتهم التى بدأت شمسها تغيب . ولعل المدة التى قضاها لوك فى المنفى جعلته يرفض النظام المستبد فى الحكم ، وحكاية الحق الإلهى المقدس الذى أضفى على الملوك . ولعل موقفه أزال غشاوة عن عيون الناس فبدأوا يتساءلون باحثين عن الحكومة العادلة ، وعن التحرر من السيطرة السياسية . ففى رأيه أن الإنسان بطبيعته قوة يحمى بها ممتلكاته ، أى حياته ، وحريته من غيره من البشر .

وفى « خطابات أربع عن التسامح » يهيب بمعاصريه الذين أنهكتهم الحروب الدينية والبغضاء أن يتحرروا دينياً . فما فى النفوس ليس من سلطة الحاكم ، والدين مرتبط بما فى عقل الفرد ... وهذا ما يقبله الله ، فالله لا يقبل سلوكاً نتج عن قوة من الحاكم . ولن تستطيع وسائل التعذيب ومصادرة الممتلكات والسجن أن تغير ما فى نفس الفرد .

ومع هذه الآراء التحررية التقدمية التى نادى بها لوك فان جمهرة الشعب الإنجليزى ظلت معتقدة أن الإرادة الإلهية فى صف الرجعية . وسادت فى عهد وليم ومارى قوى الملكية والأرستقراطية مع السلطات الكنسية ، وظل الشعب خاضعاً لها ، حتى أن هذه القوى سيطرت على التعليم فى جميع مراحله ،

وطردت المارقين منه (حتى عام ١٨٧١) وضاع تعليم الشعب .

ولكن تناقضاً يظهر فى موقف لوك ، فان التربية من أجل (الرجل المثالى) أو (الجنتلمان) لم تكن مستطاعة لكل الشعب ، وإنما كانت ممكنة لطبقات ممزة . ولذلك نراه يقول إنه إذا استقامت أمور هذه الفئة فسوف تستقيم أمور المجتمع كله ، عن طريقهم . وهنا يظهر التناقض بين النزعة التحررية ، وقصر التربية الكاملة على فئة معينة .

ومع ذلك فنسمع من لوك أقوالا عن تربية الأطفال الفقراء ، ومعظمهم كانوا شغالين ، فيقول إن على الأطفال الفقراء بين سن الثالثة والرابعة عشرة أن يكونوا تحت إشراف مدرسين يدربونهم على العمل وليتفهموا الصناعة حتى يردوا بانتاجهم ما صرفه المجتمع على تغذيتهم !!

ويقف لوك مع فولتير الفرنسى فى صف واحد ، كلاهما يتكلم عن مجتمع من الأحرار ممز عن بقية المجتمع . بئس تربية هذه التى قالها لوك عن الفقراء وتدريبهم ليدفعوا ثمن طعامهم . لقد كان كومنيوس قديساً إذا قورن بلوك ، وقد نتلمس بعض العذر للفيلسوف لوك إذا حررنا عقولنا من مفاهيمنا الحديثة وعشنا فى عصر الاضطرابات والسيطرة الدينية والأرستوقراطية .

وإذا تركنا موقفه جانباً لندرس شيئاً عن آرائه التربوية فنجد أنه :

١ — يؤمن بأن الخبرة أساس كل المعرفة ، فالطفل يولد وعقله صفحة بيضاءTabula Rasa . إن مصدر كل أفكارنا خبراتنا الحسية ، وإدراك الظواهر الداخلية أى نشاط الفهم (١) .

٢ — يؤمن لوك بالإلهام الإلهى ، ولكنه ترك هذا الموضوع ليكون تحت بحث العقل البشرى .

٣ — يؤمن بضرورة التربية الجسمية والخلقية ، وأن يبدأ الطفل تعلمه بالمحسوسات . ولهذا — ففى رأى البعض — يصنف لوك بين جماعة الواقعيين الحسيين .

---

(١) Mc Cormick, op. cit, pp. 468 - 470 .

٤ — تهدف التربية إلى : قوة الجسم ، والفضيلة كما تتضح فى صلاح النشأة وحكمة السلوك ، والمعرفة . على أن المعرفة تتوقف على صحة الجسم وحسن الخلق والنشأة الطيبة . ويظهر اهتمامه بتربية الجسم فيقول إن العقل السليم فى الجسم السليم (١) .

٥ — ينبغى ، لكى ينمو الأطفال نمواً جسمياً صحيحاً ، ألا يلبسوا ملابس ثقيلة تدفئهم شتاء ، وأن يسيروا ورءوسهم عارية . وأن يناموا مبكراً ويتيقظوا فى وقت مبكر . والنوم ثمانى ساعات . والتقشف مستحب .

٦ — يرى أهمية التربية الخلقية ، فيكون الجسم قوياً ليكون قادراً على تنفيذ أوامر العقل ، فالجسم القوى قادر على تحمل مختلف الصعاب .. حتى رغباته .

٧ — يجب أن يتعلم الطفل إنكار الذات والسيطرة الذاتية ، ويجب أن يخضع الأطفال رغباتهم ومطالبهم فلا يندفعون وراءها . فلا يحصلون على شىء لأنه يرضيهم ، ولكن لأنه يصلح لهم .

٨ — تهدف التربية الأولى إلى تكوين العادات الصالحة ، ويتدرب الأطفال على تقبل أوامر الأب والمعلم ، عن أن يتحكم الخوف فى تحديد سلوكهم فى طفولتهم ، ويتحول محور السلوك إلى الحب والصداقة عندما يكبر الطفل ، ومع ذلك فيرى لوك أن العقوبة الشديدة غير مجدية ، وينصح باستخدام المدح والتقريظ أما العقوبات البدنية فهو يرفضها إلا فى الحالات القصوى .

٩ — يهتم ببث الفضائل منذ بواكير الطفولة ، فبالفضائل يتمتع الطفل بحب واحترام الآخرين كما يتعود التسامح مع نفسه . والسبيل إلى الفضائل هو التعليم الدينى صباحاً ومساءاً حتى يتعود الإخلاص لله الخالق الواهب الحافظ .

١٠ — تأتى التربية العقلية فى مرحلة تالية للخلقية ، ولا يرمى من التربية العقلية أن يحقق المتعلم كمالا فى علم من العلوم ، ولكن ليتفتح عقله لشتى العلوم؛

---

(١) كما وردت : فى القسم الثانى من كتابه : **Some Thoughts Concerning Education**

ومهمة المربى أن يدرب (ملكات) المتعلم ويعلمه حسن استخدام وقته ، وأن يعوده تحمل الآلام ليحقق الكمال فى عمله .

ولكى يفكر الفرد تفكيراً سليما فيجب أن يدرب عقله على ملاحظة العلاقات بين الأفكار ، والرياضيات خير تدريب على هذه الملاحظة ، فهى الطريق إلى « تكوين مخلوقات عاقلة » .

وبعد هذا العرض السريع لأهم أراء لوك التربوية ، لعلنا نتساءل أين مكانه بين فلاسفة التربية ، فان البعض يضعه فى زمرة الإنسانيين ، والبعض يراه واقعياً ، وأحياناً نفعياً . فمع أنه قد نادى بتدريب العقل ، ولكن بعض آرائه لا تتفق مع القائلين بنظرية التدريب الشكلى ، فهو يرفض ما يذكرونه عن انتقال أثر التدريب .

كتب لوك عن تربية طبقة خاصة ، ولذلك فلم تجد آراؤه صدى تطبيقياً فى المدارس ، ومع ذلك فقد أثرت آراؤه على التربية الإنجليزية والأمريكية وخاصة فى عملية التدريب ، ومشكلة النظام ، كما تأثر بها روسو وخاصة فى قوله بتربية الطفل تربية طبيعية .

الحركات الطبيعية والنفسية والاجتماعية

... ونصل فى رحلتنا عبر القرون فى صحبة الفكر التربوى وتطوره إلى القرن الثامن عشر حيث سادت شكلية دينية وشكلية عقلية عرفناها فى عصر التنوير . وقد ثار مفكرون ضد الأنماط السلوكية الجامدة التى حتمها التفكير الدينى ، ثاروا بعد أن ازداد إيمانهم بحقيقة الطبيعة البشرية وما تتطلبه من حرية فى التعبير وارتياح ومرح . وقد ساء الفرنسيون خاصة سلطة الكنيسة الإرهابية القاسية على الفكر والعمل ، وقد ساندت الكنيسة دعائم البلاط الملكى وفسق الحكام ، ومع القوتين كانت قوة الأرستقراطية الممعنة فى إباحيتها الغارقة فى ملذاتها ... وكبار رجال الدين فى نعيم لا يعارضون ولا يحتجون على الملك والبلاط والنبلاء وإنما كبلوا الفكر والعمل بجمود الدين . وغطى رجال الكنيسة موقفهم بالمواظبة على أداء الطقوس الدينية ، وكانت مشبعة بالرياء والنفاق والورع الزائف .

ومع ذلك فكانت فرنسا تزدهر وتنمو لتقود أوروبا كأول دولة لها مقومات الدولة الحديثة . وكانت حركة التنوير الفكرى (وقد أشرت إليها سابقاً) ثورة على السلطة الكنسية وعلى الاستبداد فى الحكومة والمجتمع محاولة تحرير التفكير من الجهل والخرافات ، ومعتمدة على العقل الإنسانى والتفكير البشرى . وحاولت حركة التنوير بناء الشخصية للفرد مؤكدة كفايته وحريته الفكرية وهادمة المخاوف المتسلطة على المشاعر . فقد آمنت بعقل الفرد وعدالة الحكم والتسامح الدينى وبالحرية السياسية وحقوق الإنسان . وقد بينت فى صفحات سابقة آراء لوك المرتبطة بهذا التحرر . وتبلورت دعوة الداعين فى أن جميع الأفكار تنتج عن التجريب وأنه ليست هناك أفكار فطرية ، وأن الحس هو المصدر الأول لكل أنواع المعرفة ثم يأتى دور التفكير . وقد أعلى من شأن العقل . على أنه يؤخذ على كثير من المفكرين ومنهم فولتير ولوك قصر كفاية العقل وسموه على فئات معينة ، ولم ترض هذه الأرستقراطية العقلية بعض المفكرين وقتئذ فقد رأوا فيها طبقة ذكية تقوم على أطلال طبقة غنية . وكان معنى هذا أن تعيش جموع الشعب فى ظلام وجهل . ويقول منرو إن الحركة الفكرية فى هذه النزعة الأرستقراطية تحولت إلى نوع من الشكلية ، شكلية فى الشكل وفى الأثرة وقلة الاكتراث ، وفى زخرفة مظاهر الاختلاط الاجتماعى ، وفى أنظمة عرجاء لمجتمع زائف .. بذلك بعدت هذه الحكمة العرجاء وسيادة الطبقة المتعلمة المصطنعة عن البساطة لاعتبارها دليلا على الابتذال ، كما بعدت عن المنهج الطبيعى . ثم ظهر جان جاك روسو يدعو إلى مذهب طبيعى .

جان جاك روسو. Jean Jacques Rousseau « ١٧١٢ — ١٧٧٨ » .

يدرك الدارس لآراء روسو مدى تأثره بآراء مونتين ولوك ، ولكنه كان أكثر قدرة وشجاعة فى توضيح رأيه ، فلم يبال بما ساد عصره من عادات وأفكار لم تعجبه . فقد تأثر بآراء مونتين فى تربية الحواس مؤكداً أن العقل السليم فى الجسم السليم ، كما تأثر بآراء لوك فى العناية بتربية الجسم والعقل

والخلق وعدم تدليل الأطفال بالمغالاة فى كسائهم وتدفئتهم شتاء ، ولكنه آمن بترك الطفل حراً يفعل ما يشاء ... وسوف تعلمه الطبيعة وتربيه .

ولد روسو فى عائلة فرنسية بروتستانتية تسكن جنيف عام ١٧١٢ ، وماتت أمه فى ولادته ، ورباه والده إلى سن العاشرة ثم كفله أقارب أمه . وقد درس ليتعلم الكتابة وتسجيل العقود ولكنه فشل ، وحاول تعلم فن النقش ولكن قسوة معلمه أبغضته فى الفن وأستاذه ، ويقول روسو فى اعترافاته إنه بسبب هذه القسوة تعلم الكذب والسرقة واعتاد الجبن والمكر . وقد حدث ذات ليلة فى سنة ١٧٢٨ أن عاد متأخراً فوجد أبواب مدينة جنيف قد أغلقت فخاف سوء المعاملة ، وقضى ليلته فى الخلاء . وبدأ يعيش مع إخوان السوء فانحدرت أخلاقه . ويقول روسو فى اعترافاته إنه عمل فى خدمة بعض الأغنياء ، واعتنق الكاثوليكية ، ثم تعرف بسيدة ثرية اسمها مدام دى وارنز وهى أرملة شابة متحررة علمته الموسيقى والكلاسيكيات ثم تركها ورحل إلى باريس ، وعاد إليها ١٧٣٢ ، وكان يحبها فهى فى نظره أجمل النساء (١) . وفى سنة ١٧٣٨ تحول إلى حب سيدة أخرى حتى عام ١٧٤٠ حيث عهد إليه بتربية أطفال إحدى العائلات الغنية فى ليون ، ولم ينجح اكثيراً كمدرس . ثم رحل إلى باريس مؤملا أن يخرج على العالم بطريقة جديدة فى الموسيقى ، وقدمها إلى المجمع العلمى ، فرفضت ، ولكنه كسب معرفة كثيرات من السيدات اللاتى يجدن الموسيقى . وعمل بعد ذلك كاتم سر لسفير فرنسا بالبندقية ولكن زملاءه وشوا به فعاد إلى باريس واشتغل بالتأليف الموسيقى . ثم تزوج من امرأة غبية جاهلة اسمها تيريز . ويقول إنه أنجب منها خمسة أطفال وأنه أرسلهم كلهم إلى ملجأ .

ومن أعمال روسو فوزه فى مسابقة قدم فيها « رسالة فى العلوم والفنون » وفى العام التالى (١٧٥٢) قدم للمجمع العلمى « رسالة فى التفاوت وعدم المساواة » آملا الفوز ولكن آماله طاشت ، ونشر الرسالة فى العام التالى ، وفى

---

(١) أنظر : اعترافات جان جاك روسو (ترجمة محمد بدر الدين خليل) .

نفس السنة كتب روسو رسالة فى الاقتصاد السياسى قال فيها بوجوب تعبير القانون عن إرادة الشعب ، وأن تعلم الحكومة جميع الأطفال تعليما سليما حتى تربى الطفل ديمقراطياً ، وأن تفرض الحكومة الضرائب على الأغنياء لاالفقراء

وكتب روسو « العقد الاجتماعى The Social Contract »وفيه دافع عن الفقراء وانتصر للعامة وطالب بالرجوع إلى الطبيعة لتحقيق العدالة الاجتماعية .

وكان روسو جريئاً فى كتابته فى وقت كانت الجرأة نادرة ، فى وقت ساد فيها القول بأنه إذا كان الحكام ذئاباً وجب أن يكون المسيحيون غنماً ، نادى روسو بالحرية والمساواة فلا يمعن الغنى فى غناه ويمعن الفقير فى فقره حتى لا يشترى الغنى الفقراء ، ويبيع الفقير نفسه لعوزه وحاجته . والظاهر أن طفولة روسو وحياته بين فقراء أحياناً وأغنياء أحياناً أخرى . ثم احتكاكه بعناصر الفساد الخلقى على مستوى الجماعات وعلى مستوى الأفراد ، والنذالة التى عامل بها بعض الذين أحسنوا إليه ، والنذالة التى عومل هو بها .. كل هذا جعله يكتب بإيمان وصدق ، وقد عارض آراء فولتير الذى وصف جموع الشعب بأنهم أغبياء متوحشون ، وأنهم ثيران لا يحتاجون إلا إلى منخس ينخسون به ، ونير يوضع على رقابهم ، وعشب يأكلونه (١) .

وانتشر كتاب العقد الاجتماعى ليكون إنجيل الثورة الفرنسية ، فقرأه الجند فى معسكرهم ، وتلى فى شوارع باريس ، بل أعجب النبلاء والأمراء لعذوبة عباراته ومتانة حججه . وعبر الكتاب المحيط ليؤثر فى أمريكا أيضاً .

وكتب روسو « الاعترافات Confessions » أظهر فيها الطبيعة الحقة للإنسان وكان أميناً فى شجاعة وقحة فلم يخف خطيئة من الخطايا التى ارتكبها ، ويذكر أن أحداً قبله لم يقف عارياً – فى كتابته – أمام العالم كما فعل ، قائلا « إذا لم أكن أحسن من غيرى .. فأنا على الأقل مختلف عنهم » .

أما مؤلفه الخالد « إميل Emile » فكان الدافع له على كتابته سؤالا من سيدة طلبت أن يرشدها إلى الطريقة المثلى فى تربية أبنائها ، وقد وضح فى إميل

(١) محمد عطية الابراشى : جان جاك روسو ، ص : ٣٩ – ٤٠

كيف يربى الطفل منذ ولادته حتى يبلغ العشرين من عمره ، وتشمل الأجزاء الأربعة الأولى من إميل هذه التربية ، أما الجزء الخامس فشرع فيه تربية البنت لتكون امرأة تربى أبناءها وتسعد زوجها .

وكانت سنوات روسو الأخيرة متسمة بالمتاعب فبعد أن ألف إميل خاف الاعتقال فهرب إلى إنجلترا . وظل يتنقل هو وتيريز من مكان إلى آخر حتى عادا متنكرين إلى باريس سنة ١٧٧٠ ، وضاقت زوجته به وأهملته . وعاش بائساً يكسب قوته بنسخ الموسيقى حتى ضعفت أعصابه وعجز عن الكتابة أو كاد . وجالت برأسه هواجس وخواطر غريبة ففقد الثقة فى كل الناس ، ثم انسحب إلى الغابات حيث قدم له صديق كوخاً فى غابة يسكنه . وعادت إليه الخواطر السوداء فظن أن أعداءه يحيطون به . ويقال أنه انتحر ، وقيل إن سكتة قلبية دهمته فمات ودفن فى ليلة صيف هادئة بين أحضان الطبيعة وسط أشجار الحور . وبعد أن نجحت الثورة الفرنسية (١٧٨٩) حمل الثائرون جثته حيث دفن مع العظماء فى البانثيون .

أما عن آرائه التربوية التى تردد صداها فسوف أكتفى بتلخيص وجيز لها :

١ — يرى أن هدف التربية هو تكوين إنسان كامل ، وأن على التربية أن تزيل كل شىء لتنمو الطبيعة الإنسانية وترقى ، فالتربية بهذا المعنى وسيلة يزول بمقتضاها ما يعوق نمو الطفل وما يؤثر فيه تأثيراً سيئاً .

٢ — ثار روسو ضد النظم القائمة وخاطب الناس قائلا « سيروا ضد ما أنتم عليه تصلوا إلى النجاح » . وقد هزأ بالتعليم المدرسى العادى ، ونصح المربين بأن يرجعوا مع الأطفال إلى الحالة الطبيعية .

ولا ندرى بالضبط ماذا يريد روسو بالحالة الطبيعية . فهو يقول إنه لا يجب أن يسمح للطفل فى تربيته بالاختلاط بأحد حتى لا يقلد نموذجاً سيئاً . وليذهب الأطفال إلى الطبيعة ويبقوا على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق مستوى البحر حتى لا يصابوا بأمراض خلقية اجتماعية ..

٣ — يرى روسو أن التربية الأولى من الميلاد إلى سن الثانية عشرة يجب

أن تكون سلبية محضة ، إذ أنها لا تدعو إلى بث الفضائل بل عليها أن تبعد كل ما يكون الرذائل عند الطفل ، وحتى تحفظ عقل الطفل من الخطأ . والخير فى أن تترك الطفل دون أن تفعل شيئاً له . وفى رأيه ألا يعلم الطفل شيئاً حتى الثانية عشرة .

٤ - حتم روسو على المربين دراسة الأطفال وأن يدرسوا العالم فى نظر الطفل وعقليته وغرائزه وميوله وتفكيره .. الخ ، ويقول « ادرسوا أطفالكم ، إننا لا نفهم معنى الطفولة » . وكان يرى أن جهل المربين بالأطفال والطفولة أدى إلى تربيتهم تربية خاطئة . ورأى .. « إن الطبيعة تتطلب أن يكون الأطفال أطفالا قبل أن يكونوا رجالا » والطفل فى نظره ليس مصغر رجل ولكنه كائن فى طريق النمو . ويتكلم روسو عن بعض صفات الأطفال فيقول « إن الأطفال لا يفكرون إلا فى الحاضر دائماً ، إن فى استطاعتك أن توحى إليهم بذوق أو عاطفة ، إنهم معجبون بأنفسهم يتمنون أن يكون لديهم ما لدى غيرهم ، إنهم مرحون محبون للمحاكاة ، إن الطفل يتمنى أن يكون أشياء ، وأن يقلد ، وأن ينتج ، وأن يظهر قوة ونشاطاً » (١) .

وكان يرى أن وظيفة المربين إعداد الطفل للحياة المقبلة وأن يدركوا العالم فى نظره ، وكيف يراه ويتخيله ، وأن يفكروا فى عالم الطفولة الذى يعيش فيه حتى يأخذ من المواد ما يلائم ذلك العالم .

٥ - اهتم روسو بنشاط الطفل ونصح بمده بالوسائل التى يظهر فيها هذا النشاط ، كما نادى باستغلال حواس الطفل وتربيتها منذ الطفولة . بل إنه نادى بعدم تعليم الأطفال القراءة فى الصغر معتقداً أن حركة الطفل ولعبه أكثر فائدة له فى الناحيتين الجسمية والعقلية .

٦ - يرى روسو أن يقلل بقدر المستطاع من الأوامر والنواهى التى يصدرها الكبار للأطفال ، كثرتها تميت شعور الطفل ، ولا تدفعه إلى التفكير لأنه يصبح آلة فى يد غيره . ولذلك فهو يرى أن يتعود الطفل السلوك دون

---

(١) محمد عطية الابراشى : (المرجع السابق) ص : ٧٦

سلطة خارجية تصده عن الخطأ . إذ أن معنى هذه السلطة أنه يعمل خوفاً من عقاب ولا يفكر فى إرضاء ضميره أمام الله والإنسانية . وإنما يسلك ما يسلك لإرضاء غيره .

٧ – يؤمن روسو بتشجيع الدراسة العملية والطبيعية والرياضية ، ويندد بتعليم الآداب واللغات . كما يرى ألا يعتمد الطفل على الكتب وحدها فى التعلم.

٨ – وفى رأى روسو أن يترك الطفل للطبيعة يتعلم ما فيها من أسرار ، ويدرس ما فيها من نبات وحيوان وجماد حتى يقدر قدرة الخالق . والطبيعة فى نظره خيرة وأن الشر يأتى إلى الإنسان من احتكاكه بالناس .

وقد عبر روسو عن آرائه التربوية فى كتاباته ، وخاصة فى « إميل » . وإميل شخصية رباها روسو فى كتابه ، ولم يقترح نظاماً للتعليم ، ولكنه ترك الطبيعة تأخذ مجراها ، والكثير من الآراء التى أوردها لا يمكن تطبيقها اليوم . ولكن روسو يقترح عدداً من الوسائل لدراسة طبيعة الطفل . والكتاب فى خمسة أجزاء (١) :

١ – الجزء الأول : من الميلاد إلى الخامسة ، وينصح روسو بأن ينقل الطفل إلى الريف ليعيش وسط الطبيعة . ولا يتدخل أحد فى تربيته ، بل يترك لتقوم الطبيعة بتهيئة الظروف للنمو الداخلى لمواهب الطفل وأعضائه . وينصح بألا يلف الطفل بعد ولادته بالأربطة واللفافات ، فهذا معوق لنموه الطبيعى ، وألا نغالى فى العناية به حتى ينمو مستعداً لمقابلة صعوبات الحياة ، فنجيب طلباته الضرورية دون أن ندلله . ويوجه الطفل فى هذه المرحلة : الأم مصدر حبه ، والأب وهو المربى الأولى للطفل ، ثم المعلم الذى يعلم الطفل واجبات الرجال .

٢ – الجزء الثانى : من الخامسة إلى الثانية عشرة ، ويظل الطفل فى الريف ويتركه المعلم يعلم نفسه بنفسه من الطبيعة . فاذا أخطأ يتحمل تبعة خطئه . والتربية فى هذه المرحلة جسمية ، وينصح بأن يعود الطفل الخشونة . وتتميز

---

(١) صالح عبد العزيز : تطور النظرية التربوية. ٢٨٤ - ٢٩٦ .

هذه المرحلة بأن التربية فيها سلبية ، تهتم بتعويد الطفل العادات الخلقية السليمة ، ولا يتعلم القراءة والكتابة ، بل لا يحمل الطفل على تعلم أشياء لا يقدر على فهمها ، وأن يقتصر الإعداد التربوى للطفل على مجرد تدريب الحواس .

٣ ــ الجزء الثالث : من الثانية عشرة إلى الخامسةعشرة ، وهذه مرحلة البلوغ ويراها روسو مرحلة التفكير والدراسة ، ومرحلة العمل والتعليم . وينصح بأن نعتمد على الظمأ الطبيعى للطفل نحو المعرفة ، وأن نعتمد على الطبيعة وألا نلجأ إلى الكتب ، فالعالم المحيط بالطفل هو كتابه ، وحقائق هذا العالم هى موضوعات التعليم . وينصح روسو بتعليم إميل الجغرافية والفلك والجبر والطبيعة ، ويكون تعلمها بطريقة عملية .

ويرى أن يكون كتاب روبنسن كروزو أول كتاب يقرأه إميل ، سيتقمص شخصية روبنسن ويتعلم بعض الصناعات التى كان يقوم بها بطله ، وأن هذا سيحرك فيه دافع البحث عن فنون أخرى . ومرة أخرى ينصح روسو بأن تعود إميل التقشف فيفترش الأرض ويلتحف السماء مثلا .

٤ ــ الجزء الرابع : من الخامسة عشرة إلى العشرين ، فبعد أن أخذ إميل قسطاً كافياً من التربية الجسمية والعقلية أصبح لازماً أن يربى دينياً وأخلاقياً حتى يدرك صلته بالناس وعلاقته بالله . ويرى الإقلال من النصائح والإرشاد وزيادة اتباع الطرق العملية واحتذائه المثل الصالحة التى يلمسها فى سير أبطال التاريخ . ومن رأى روسو أن تعليم الدين لا يبدأ إلا فى سن الخامسة عشرة . ويفيد إميل من احتكاكه بذوى الخلق السيء وزيارته للملاجيء والسجون حتى يشاهد أمثله محسوسة للبؤس ويتعرف على نتائج السلوك الخاطيء . وفى هذه المرحلة يبدأ إميل يتذوق القراءة والفن .

٥ ــ الجزء الخامس : تربية المرأة ، فقد كبر إميل وبدأ يبحث عن زوجة ، فوجد صوفى . وفى هذا الجزء يعطينا روسو آراءه عن تربية البنت التى ستصبح إمرأة مهمتها إرضاء الرجل . ولهذا فيجب أن تربى لتحقق هذا الهدف ، وحيث أنها تسعى إلى إرضاء رجلها فيجب أن تمرن جسمياً لتكون

رشيقة سليمة البنية قوية ، وتتعلم الطهى والتطريز والعناية بالأطفال ، وبعض الفنون كالموسيقى .. وتتعلم كيف تكون فاتنة جذابة . ولا يرى أن تتعلم علوماً عقلية . وكل ما تتعلمه يدور حول إسعاد وخدمة الذكر ، طفلا وصبياً وزوجاً

ويرى بعض الكتاب أن موقف روسو الشاذ عن تعليم المرأة وحقيقة دورها فى المجتمع إنما سببه أنه لم يعرف فى حياته نساء ذوات شخصيات محترمة. ألم يتزوج خادمة غبية جاهلة سليطة اللسان ناكرة الجميل . ؟

لا يختلف المربون فى قولهم إن روسو واضع أصول المذهب الطبيعى فى التربية ، فقد ألح بوجوب اتباع الطبيعة ، فيقول .. إن كل شىء حسن طالما هو فى يد الطبيعة ، ولكن كل شىء يلحقه الفساد إذا مسته يد الإنسان ، نحن نولد ضعفاء فى حاجة إلى قوة .. نحن نولد مجردين من كل شىء ، فى حاجة إلى عون .. نحن نولد أغبياء ، فى حاجة إلى قدرة على التمييز ... فكل ما حرمناه عند الميلاد ، ونحتاجه عندما نكبر ، تمنحنا إياه التربية (١) .

ولعل صيحة روسو Retournez â le nature العودة إلى الطبيعة ، قد هزت المربين فى عملهم (الروتينى) ، وغيرت فى طرائق التربية ، وأثرت فى اتجاهات الكبار نحو الأطفال الذين لم يصبحوا رجالا مصغرين . ونال الأطفال حقوقهم على يد روسو ، بل نالت التربية مكانتها فى مركز النمو البشرى بعد أن تخلصت من دورانها فى فلك الكنيسة والدولة والمجتمع (٢) .

لقد عاش روسو حياة مضطربة ، وكتب دراً ثمينة ألهبت مشاعر الفرنسيين ، بل مشاعر الباحثين عن الحرية ، والكيان الفردى لكل إنسان ، ثم أمضى سنى حياته الأخيرة يعيش على الكفاف مع زوجة أتعبته وأهملته ولم تستمع لرجائه . ونصر روسو الطفولة حتى يسعد الأطفال مؤكداً ضرورة دراسة المربى نفسية الطفل .

— — —

(١) جان جاك روسو (ترجمة عادل زعيتر) : إميل أو التربية ، ص : ٢٧ - ٢٩ .

(٢) Ulich, op. cit., p. 223

... ويتقدم ركبنا فى تطوره التربوى حتى نطل من نافذة التاريخ على القرن التاسع عشر . وقد وارينا روسو التراب بعد صيحته المدوية الطبيعية والتى وجهت النظر إلى الطبيعة ، طبيعة الطفل و الطبيعة الخيرة التى يتربى فى أحضانها وتتحول التربية بالطبيعة إلى التربية بالنمو . ومن صيحة روسو وحياة إميل يبدأ عصر جديد للتربية بعد أن أصبحت عملية طبيعية تبدأ من الغرائز الفطرية ومن الدوافع إلى العمل ، توجهها المبادىء المستمدة من دراسة عقلية الطفل ونموه ، ومن عقلية الراشد وكيف تعمل ، بهذا وضع روسو الأحجار الأولى فى بناء الحركة النفسية .

ويأبى روسو أن يقف عند هذا الحد ، فهو يضع أيضاً أسس الحركة العلمية فى التربية . فقد قال بأن تكون الحقائق والظواهر الطبيعية قوام المادة التى يتعلمها الطفل ، فهو يبحث عن قوانين الطبيعة عن طريق احتكاكه المباشر بها ، ممجداً الطبيعة ومقللا الاهتمام بالإنسان ، فالطبيعة مصدر الخير . والإنسان سبب الفساد والشر .

على أن روسو أعجب بالإنسان البدائى فى حياته الطبيعية ، فاهتم بفضائله فهو إنسان حريص على تحسين عمله الخاص ويحس فى نفس الوقت بانتمائه إلى جماعة بشرية يتعاطف معها ويتعاون مع أفرادها ... وفضل آخر لروسو فقد أسهم فى أساس الحركة الاجتماعية .

ومع نهاية القرن الثامن عشر وبزوغ شمس التاسع عشر بدأت الحركات الثلاث (النفسية والعلمية والاجتماعية) تظهر على مسرح التربية متضامنة فى تكامل أصبح ينمو على مر السنين حتى يتعذر الفصل بينها . فقد التفت آراء المربين بمبادئها المتناسقة . وإن نظرة فاحصة قد تظهر لنا أن الحركة النفسية أسهمت بقسط كبير فى طرق التدريس ، كما تأثرت مادة الدراسة بالحركة العلمية ، أما الحركة الاجتماعية فتغلغلت فى المناهج والخطط المدرسية وفلسفتها.

وكانت نداءات روسو ذات طابع سلبى ، فهى تطالب أن تزال العقبات التى تقف أمام النمو الطبيعى للطفل ، وجاءت الحركة النفسية لتبذل مجهوداً للتعبير عن هذه النداءات إيجابياً .

بستالوتزى Johann Heinrich Pestalozzi (١٧٤٦ — ١٨٢٧)

صاحب فضل فى أنه وجه الأنظار إلى أن مشكلة التربية يجب دراستها من ناحية علاقتها بنمو عقلية الطفل . وإذا كان مربون سابقون قد أشاروا إلى نفس المشكلة إلا أن بستالوتزى رفعها عالية واضحة على قمم جبال سويسرا .

فى زيورخ عام ١٧٤٦ ولد بستالوتزى ، ومنذ طفولته عاش فى اليتم بعد وفاة أبيه ، وعوضته أمه عنه بعطفها الشديد . وقد التحق بالجامعة . ودرس اللاهوت ، ثم تحول إلى القانون كى يدافع عن الفقراء ، ثم تحول إلى تعلم الفلاحة والزراعة . وعول على استصلاح قطعة أرض ثم فشل . وحاول تنشئة طفله الوحيد متبعاً أسلوب إميل ، وهنا اكتشف السلبية فى آراء روسو ، وبدأ اهتمامه بالتربية .

فتح بيته فى نيوهيف لعشرين طفلا يقوم على تربيتهم فى الحديقة والحقل صيفاً ، وداخل البيت شتاء .. وخرج من هذه التجربة بأنه إذا أحس الطفل عطفاً ورعاية فلن يقترف السلوك الشائن . وجاءته أعداد أخرى من الأطفال ، وكان آباؤهم فقراء . وفشل بستالوتزى معهم فقد ظن الآباء أنه يريد استغلال أطفالهم لمآرب مادية ، وفر الأطفال بعد أن كساهم بستالوتزى ملابس جديدة وأوشك على الإفلاس ، وأعانته زوجته حتى نضب مالها .

وعاش ثمانى عشرة سنةمنكباً على أعمال أدبية ، فرأس تحرير صحيفة ثورية وكتب مقالات تدور حول الإصلاح الاجتماعى . وأنه لا يتم إلا عن طريق التربية . وكتب « ساعة الناسك الليلية » الذى حوى مائة وثمانين اقتراحاً تربوياً . وكتب « ليوناردو جرترود » وتدور قصته حول حياة سكان الريف وأسباب انحطاط مستوى معيشتهم ونادى فيه بضرورة تنمية أخلاق الطفل وعقليته ، كما بين أهمية تحقيق الإصلاح فى المجتمع . وأعقبه بكتاب « كرستوفر والزا » وضمنه بعض المبادىء التربوية ، وفشل الكتاب ، كما فشلت صحيفة أسبوعية أصدرها ، وسبب الفشلين أنه كتب للدراسة والموعظة ، وكان الناس يفضلون القراءة للتسلية والمتعة (١) .

(١) سعد مرسى أحمد : فروبل ، ص : — ٣٠ — ٤٣ .

ثم تعرف على فلاسفة ألمان مثل جوته وفخته . وكتب مؤلفاً عنوانه «بحث فى أثر الطبيعة فى نمو الجنس البشرى » وكان صعباً جداً لا يفهمه الناس . وكانت محاولته التربوية العملية الثانية فى مدينة ستانز (١٧٩٨) حيث أشرك معه آخرين فى تربية أربعين طفلا ذبح الجنود الفرنسيون آباءهم . وفى هذه المؤسسة التربوية حاول أن يجمع بين النشاط التربوى والصناعة اليدوية معتمداً على فتح قلب الطفل ثم تحقيق رغباته اليومية ، وإشعاره بالعطف والحب . وعاش فى دير مع الأطفال ، بعد أن هجره الذين وعدوه المشاركة مدة خمسة أشهر حتى احتل الجيش الفرنسى الدير ، ونجحت تجربته مع الأطفال ، لقد فهم عقولهم وقوانين النمو وعرف كيف يجذب قلوب الصغار نحوه . وتعب ماديا وتوسط له الخيرون حتى عين مدرسا فى مدرسة بمدينة برجدورف . وبعد أن درس ثمانية أشهر لأطفال تتراوح أعمارهم بين الخامسة والثامنة ، جاءه تقرير من المدرسة عن عمله . . . « إن التقدم المدهش للأطفال ذوى القدرات المختلفة يبين أن كلا منهم صالح لشىء إذا استطاع المدرس أن يحسن استغلال مواهبهم مترسما خطى مبادىء علم النفس . إن الطرائق القديمة التى قامت على التعذيب وألوان العقاب المختلفة مكنت الأطفال من معرفة هجاء الكلمات وإجادة عمليات الحساب ، أما طريقتك فقد زادت على ذلك إجادتهم الرسم والخط ، بل ورغبتهم فى دراسة التاريخ الطبيعى والجغرافية مما سييسر على المدرسين الذين سيدرسون لهم فى المستقبل عملهم . . . » .

وألقى إليه الإشراف على مدرسة ثانية فى برجدروف ، بلغ عدد تلاميذها سبعين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والسادسة عشرة . وكان بستالوتزى يفكر فى خير كل الأطفال . . . » إذا أردنا أن نمد يد العون إلى الفقير والبائس . فلا يوجد سوى طريق واحد هو تغيير المدارس إلى أماكن للتربية الحقيقية حيث يتاح للقوى الخلقية والعقلية والجسمية التى منحتنا إياها الطبيعة أن تعمل وتظهر ، وبذلك يمكن للإنسان أن يحيا كما يجب أن يحيا الإنسان راضيا عن نفسه ومرضيا غيره » .

ولمع اسم بستالوتزى . ومنحته الحكومة إعانة مالية ، وافتتح فصلا لتدريب المعلمين . ولكن الظروف السياسية قسمت سويسرا إلى مقاطعات ، وانقطعت الإعانة المالية ، فهاجر بستالوتزى إلى فردون ، وفى قلعتها بدأ يعمل . ووفدت إليه الوفود ليدرسوا ويلاحظوا طريقة بستالوتزى فى التربية جاءته من دول أوربية كثيرة . ولعب الحسد دوره . وبدأت الأحوال المالية تسوء : فاضمحل المعهد وأنسحب بستالوتزى فى أواخر أيامه إلى قرية صغيرة اسمها كلندى ، ثم رحل إلى نيوهيف حيث مات عام ١٨٢٧ :

أما عن آرائه التربوية فهو يقول إن ما يلزم عربة المدرسة ليس تغيير الخيول . ولكن تغيير الطريق ، ويرى أن اعتبار النمو هدفا للتربية معناه أن يصبح الطفل محور الاهتمام ، وفى ظل التربية الصحيحة ينمو النمو الصحيح ، والتربية فى رأيه هى نمو جميع قوى الإنسان وملكاته نمواً طبيعياً فى اتساق وانسجام (١) .

والفكرة الأساسية فى طريقة بستالوتزى التى جذبت إليها الأنظار تلخص فى اعتماده على التجارب والنواحى العملية التى تعمل على تطوير العقل فتتحسن قدراته وتحلل المعرفة إلى عناصرها الأولية المبسطة حتى تجذب اهتمام الطفل ويتم هذا عن طريق الملاحظة والتأثير الحسى .

وتلخص آراء بستالوتزى فى التربية فى :

١ — يجب أن نبحث عن مبادىء التربية وأسسها داخل الطفل ، وأن تبدأ منه هو ، لا أن تفرض عليه من الخارج .

٢ — تشمل طبيعة الطفل على قدرات جسمية وعقلية وخلقية ، وهذه يجب أن تنمو .

٣ — للتربية ناحيتان : ناحية إيجابية وأخرى سلبية . فالوظيفة السلبية للمربى تلخص فى إزالة العقبات التى تعترض نمو الطفل . أما الإيجابية فتظهر فى إثارة المتعلم لتدريب قواه ، فالمعلم يمده بالوسائل والفرص المناسبة ثم يرشده إلى الصواب .

---

(١) سعد مرسى أحمد : (المرجع السابق) ، ص : ٤٣ — ٥١ .

٤ — يبدأ النمو الذاتى عندما يتأثر العقل بالموضوعات الخارجية ، ويقصد بها الإحساسات . وعندما يعيها العقل تتحول إلى مدركات حسية ، وتسجل فى العقل على أنها إدراك لأفكار ، وهذه تكون المعرفة الأولية التى تصبح أساساً لكل معرفة .

٥ — تعتبر التلقائية والنشاط الذاتى الظروف الضرورية التى فى ظلها يعمل العقل نفسه ويحصل على القوة والاستقلال .

٦ — تعتمد القدرات العلمية على العادات التى تكونت من تكرار وتدريب قوى المتعلم أكثر من اعتمادها على مجرد المعرفة البحتة ، فيجب أن ترتبط المعرفة بالعمل . ولعل غرض التربية الرئيسى هو تنمية قوى المتعلم .

٧ — يجب أن تؤسس تربية الطفل على التأمل وخبرته الشخصية ، وهذا هو الأساس الصحيح الذى يستمد منه كل معلوماته ، فالملموس سابق للرمز والمعنوى .

٨ — يستطيع الطفل بعد أن رأى وتأمل ، وبعد أن أصبح هذا العمل جزءاً من خبرته أن يصف الشىء بأسلوبه وكلامه . وعلى قدر وصفه من حيث شموله أو نقصه ، عمقه أو سطحيته نستطيع أن نحكم على دقة تأمله ، وبالتالى نعرف مدى معلوماته .

٩ — تؤدى الخبرة الشخصية إلى تقدم عقل المتعلم من القريب الملموس إلى البعيد المعنوى ، ومن الخاص إلى العـــام ومن المعلوم إلى المجهول. ويرى بستالوتزى أن هذه هى الطريقة النافعة مع الأطفال المبتدئين .

١٠ — يجب أن تكون المحبه أساس العلاقة بين المعلم وتلاميذه ، وأن تكون الركيزة التى يبنى عليها النظام المدرسى .

لقد نجح بستالوتزى فى تجاربه مع الأطفال ، وكان لشخصيته الفذة فضل كبير ولكنه لم يبين لنا بصورة نظرية أو عملية كيف يتم نمو العقل وكيف تتم عملية التمثيل العقلى ، وكيف تتحول الإدراكات الحسية إلى أفكار ، وهذا ما حاوله هربارت .

هربارت Johann Friedrich Herbart (١٧٧٦ — ١٨٤١) .

تناول هربارت أفكار بستالوتزى وصبغها بالأسس النفسية . وقد ولد بمدينة أولدنبرج بألمانيا عام ١٧٧٦ من عائلة على قدر كبير من الثقافة . ودرس الفلسفة فى جامعة يينا حيث تأثر بآراء فخته ، وفى عام ١٧٩٩ قبل وظيفة مؤدب لثلاثة أخوة أعمارهم ثمانى سنوات وعشر ، وأربع عشرة سنة. ومن هذه التجربة العملية كون عقيدته التربوية . وقد زار معهد بستالوتزى فى برجدورف عام ١٧٩٩ . وعين أستاذاً للفلسفة فى جامعة هيدلبرج عام ١٨٠٩ ، وألحق بها مركزاً نموذجيا لتدريب المفتشين والنظار ، ومن أهم كتاباته « نظام فى فلسفة وكتاب علم النفس » ، « مقالات تربوية » ، و « ملاحظات فى التربية العامة . »

وقد أسس هربارت آراءه التربوية على الأخلاق وعلم النفس ، فالأخلاق تحدد الهدف ، وعلم النفس يشير إلى الوسائل . وتلخص أهم آراء هربارت فى :

١ — غاية التربية الأخلاق والفضيلة . والطريق إلى الفضيلة المعرفة الكاملة . وعلى المدرس أن ينمى فى تلاميذه البصيرة والإرادة حتى يتحقق الانسجام بينهما وعليه أن يفهم أولا نفسية تلميذه .

٢ — يتحدث هربارت عن التربية تحت عناوين : الحكومة ، والتعليم ، والتدريب ، فالحكومة تهتم بحاضر الطفل ، والتدريب بمستقبله .

٣ — لتحقيق الهدف الأسمى من التعليم ، وهو الفضيلة فيجب أن تهتم بهدف قريب هو تحقيق اهتمامات الطفل ، بهذا يضع هربارت أساسا وطيداً فى التربية ترتكز عليه اليوم ، هو مراعاة اهتمامات الطفل ، والاهتمام فى رأيه نوع من النشاط العقلى .

ويقسم هربارت الاهتمامات إلى :

١ — اهتمامات تنبع من المعرفة ، وهى الخبرة الحسية التجريبية ، التأمل فى طبيعة الأشياء ، التأمل وتقدير الجمال .

٢ — اهتمامات تتم عن طريق الربط ، وهى أفكار التعاطف الوجدانى

التى تربط الفرد بغيره ، والأفكار الاجتماعية المرتبطة بالمجتمع ، والأفكار الدينية المرتبطة بمصير الفرد . لذلك فان هربارت يرى أن تتجمع مادة الدراسة بشكل يحفظ عليها وحدتها وحتى يستطيع الطفل أن يدركها برمتها كما تعرض له . وبهذا تقوى هذه الميول المتعددة الجوانب ، وقد طبق فكرته هذه فى (الطريقة العامة) .

٣ — يرى هربارت أن النفس البشرية وحدة متصلة ، فلا تتكون من عقلية فطرية منفصلة . وأوضح أنها تتصل بالعالم الخارجى أو بالبيئة عن طريق الجهاز العصبى ، وبهذا الجهاز يتزود العقل بالمعلومات الأولية والمبادىء عن طريق الإدراك الحسى . وبهذا تتكون الحياة العقلية للطفل . كما أن تفاعل العقل لا يتكون ولا يكتسب ما ينطوى عليه من معارف بنمو القدرات الفطرية ، ولكن عن طريق الخبرة بما فيها من تجريب واستطلاع :

٤٠ — ومن الرأى (الثانى والثالث) يتكلم هربارت عن كيفية عرض المادة أو جزء من أجزائها . وعماد هذه الطريقة كيفية عمل العقل التى بها تتسع دائرة الشعور ، ولا تحددها طبيعية المادة ذاتها . والمؤكد أن هربارت لم يضع الطريقة بالصورة الشكلية التى عرفها المربون فيما بعد . و (الطريقة) الهربرتية تقسم إلى خمس خطوات (١) .

(ا) الإعداد أو التحضير . وفيها يستدعى المدرس إلى عقل تلامذه الأفكار القديمة المرتبطة بالأفكار الجديدة التى يراد توصيلها للعقل :

(ب) العرض الفعلى للأفكار الجديدة ، وهنا ترتبط الأفكار الجزئية بعضها ببعض وتتضح الفكرة العامة .

(ج) الربط . ويقصد بالربط الصلة الحقيقية بين القديم والحديث ، وفيها يتم التمثيل العقلى للفكرة الجديدة . وتتجمع الأفكار المتشابهة مع بعضها ، وتظهر نقاط الاختلاف ، وتتم المقارنة فى هذه الخطوة والمقارنة هى منطق الاستقراء .

---

(١) Edy, op. cit., pp. 492 - 493

(د) التعميم ، اهتم بستالوتزى بموضوعات الخبرة الفردية والحسية فقط ، أما هربارت فقد أدرك أن التفكير الحقيقى عن طريق تحليل الخبرات لاستخراج الصفات المعنوية ، وبهذا تتكون المدركات العامة . وهذه الخطوة ضرورية وإلا ظل العقل فى مرحلة التفكير فى الجزئيات والمحسوسات ، أما عن طريق التعميم فان العقل يستنتج القواعد من الجزئيات .

(هـ)التطبيق ، وفيها يستخدم الطفل المعرفة التى تعلمها ، فهو يطبق القواعد والمبادىء والمعارف فى أنشطة مختلفة .

ولهربارت الفضل فى تحطيم نظرية الملكات والقوى العقلية المنفصلة ، وله الفضل فى تقديم طريقة علمية رياضية للبحث التربوى . ولعله وجه الأنظار إلى اتجاهات تقدمية فى إعداد المعلمين وتدريبهم وقد ارتبط اسم هربارت فى بداية القرن العشرين عند المدرسين بكلمات . . . . الاهتمام ، الأفكار السابقة ، دائرة التفكير ، التركيز ، الربط ، ثم الخطوات الخمس التى أساء بعض المدرسين فهمها وأضفوا عليها شكلية فى تحضير الدروس .

فروبل Friedrich Wilhelm Froebel (١٧٨٢ — ١٨٥٢ —) .

نناقش آراء فروبل وأعماله من زوايا واتجاهات متعددة ، البعض يراه أعظم المربين فى القرن التاسع عشر على الإطلاق ، والبعض يراه مغفلا شاذاً ضيع وقته فى لعب مع الأطفال . ونفر ينظرون إليه على أنه صاحب آراء غامضة رمزية غير مفهومة . أما الحكومة الألمانية فقد رأت فيه ثائراً خطراً ، ومنعت انتشار آرائه التربوية وتطبيقاتها . وينظر كثيرون إلى أن آراء فروبل اقتصرت على رياض الأطفال ، وأنها تشبعت بالاتجاهات الدينية فلا تصلح للتطبيق العملى . . . واليوم تجد آراؤه صدى عميقاً عند الذين لا يقفون عند حدود القشرة الخارجية ، بل يريدون سبر الأعماق .

ولد فروبل فى إحدى قرى ألمانيا عام ١٧٨٢ . وماتت أمه وسنه تسعة أشهر ، وترك لرعاية الخدم . وكان أبوه قسيساً منهمكاً فى عمله ، بعيداً عن طفله . وتزوج أبوه ، وتطلع إلى خير ، ولكنه رزق بطفل اغتصب كل

عطف زوجة أبيه . وأصبح فردريك دخيلا . فأمضى معظم وقته فى حديقة البيت يتأمل الطبيعة . ودخل المدرسة ؛ ومن دروس الدين أحس أنه فى سلوكه يسير فى طريق الجنة (١) .

وجاء أخوه الأكبر بعد دراسته ليقيم فى البيت ، ونال فردريك حناناً منه ، إلا أنه رحل ، وجاء خاله للزيارة ، ثم رحل ومعه فردريك فروبل إلى مدينة ستادلم . وكان عمره إحدى عشرة سنة . وأحس فروبل بالراحة مع خاله القس ، الذى شجعه على الدراسة ، وأقبل فروبل على دروس الدين بحماس ، وكره دروس اللغة اللاتينية . و عاد إلى أبيه ، ولم يسمح له بالدراسة الجامعية ، ولكى يلتحق بوظيفة فى الزراعة تتلمذ على صديق لوالده مدة عامين ، ويذكر فروبل حادثة أثرت عليه وهى مشاهدته لفرقة تمثيلية ، وقد أعجب جداً بالتمثيل والممثلين ، ووصف أبوه التمثيل بأنه رجس .

وحدث أن كلف بحمل مبلغ من المـــال لأخيه تروجوت الذى يدرس الطب بجامعة يينا ، وهنا توسل أن يدرس فى الجامعة . وبقى بها شهرين . ثم باع أرضاً ورثها عن أمه والتحق بالجامعة عام ١٧٩٩ . . « ولم يكن لى صديق غير أخى . وقد آثرت أن أقضى معظم وقتى فى الدرس والتحصيل ولم أندمج فى الحياة العـــامة إلا نادراً ، وعلى فترات متباعدة . غير أننى كنت أتردد بين الوقت والآخر على المسرح القريب لاستمتع بمشاهدة التمثيل » .

وحدث لفروبل فى السنة الثالثة من دراسته الجامعية أن أعطى أخاه ما معه من مال ، ولم يرد الأخ ما أخذ ، وعانى فروبل ضائقة مالية . . . انتهت به إلى السجن ، ثم . . . « دفع أبى عنى كل ديونى بعد أن تنازلت أمام مجلس الجامعة عن كل حق لى فى ميراث منه . . . » وقطع فروبل دراسته الجامعية . وعاد إلى بيت أبيه فى سن التاسعة عشرة . وعكف على القراءة .

وبعد موت أبيه عام ١٨٠٢ التحق بوظيفة كتابية فى مصلحة الغابات . وتعرف بشاب يحمل الدكتوراه فى الفلسفة قال له . . . « حصن نفسك ضد

---

(١) للدراسة أوفى عن حياة فرويل ، أنظر . سعد مرسى أحمد : فرويل وفلسفته فى التربية.

الفلسفة ، إنها تقودك إلى الشك والظلام . كرس جهدك للفن الذى يهبك الحياة والسلام والمرح . . . » وتقلب فروبل فى بعض الوظائف ، وكان أحبها إلى قلبه ونفسه ما عمل فيها فى الطبيعة وبين أحضانها البريئة الجميلة ، حتى عين مدرساً فى مدرسة فى فرانكفورت .

ثم زار معهد بستالوتزى فى فردون ، وهناك أحس أنه قزم بين عمالقة . وعاد إلى فرانكفورت ، وعلم الأطفال ، وقرأ عن الإنسان والثقافة والمدنيات والطبائع البشرية ، ثم عاد إلى فردون ومعه ثلاثة أطفال يقوم على تأديبهم . ثم رحل إلى جامعة برلين عام ١٨١٢ حيث استمع إلى محاضرات فى التاريخ الطبيعى . ثم التحق بالجيش ليحمى الوطن ضد نابليون بونابرت . وبعد أن انتهت الحرب ، انسحب إلى قرية جريشم وأسس « المعهد الألمانى للتربية » وكان عدد الطلبة خمسة . ثم تبرعت أرملة ثرية بمزرعتها الصغيرة فى كلهاو لتكون مركزاً للمعهد ، وتزوج فروبل بهنريتا الجميلة . . ونجح المعهد بعد عدة سنوات ، وذاع صيته فطلبت حكومة برن السويسرية من فروبل أن يضع خطة لإنشاء ملجأ فى برجدورف .

وتدور الحوادث وينشىء فروبل معهداً لمساعدة صغار الأطفال . . . ثم ماتت زوجته . وتخير اسماً لهذا المعهد ، « روضة الأطفال » Kindergarten. وكان صدى نجاح فروبل حقداً وحسداً وصداً من مواطنيه ، بل اتهامات من حكومته . ثم عاد إلى كلها وليدرب المعلمين . وحاضر عام ١٨٤٩ فى هامبورج عن تربية النساء ، ثم أنشأ جريدة أسبوعية فى التربية عام ١٨٥١ ، وفى نفس السنة تزوج للمرة الثانية ، كما صدر فى نفس السنة أمر من وزير التربية والدين بالغاء رياض الأطفال ، فقد أتهم فروبل بأنه يدعو الأطفال للإلحاد . ومات فروبل عام ١٨٥٢ ولم يلغ أمر الوزير إلا فى عام ١٨٦٠ . وقد ضمن فروبل آراءه فى كتابه « تربية الإنسان »Die Menschen Erziehung

أما عن فلسفة فروبل التربوية (١) . فقد سيطرت فكرتان على تفكيره ، هما مثالية غامضة وحب أكيد للأطفال والطفولة .

ويرى فروبل أنه لا يوجد شيء أمتع من الاتصال القريب بالأطفال ، ويفرق بين أن يمضى الكبير ساعة بين الأطفال وبين أن يكرس كل حياته لمراقبة سلوكهم ، ويهاجم فروبل التهمة التى توجه لمن يتعاملون مع الأطفال وأن أفقهم ضيق وتفكيرهم محدود . وقد ارتفع فروبل بالمربين إلى مستوى أرقى من مجرد النزول إلى الطفل .

ويتكلم عن التطور أو النمو وكيفية تكوينه ، وهو لا يقصد النمو من حيث الكم أو الزيادة العددية ، بل الزيادة فى تعقد التكوين والتحسن فى القوة والمقدرة والمهارة ، وفى تنوع مظاهر الوظائف الطبيعية ، وكيف أن هذه تنتج عن طريق الممارسة والمران وهذا ما نطلق عليه اسم النشاط الذاتى .

ويرى فروبل أن الحياة والنمو إن هما إلا تطور تقدمى ، وأن نمو الأفراد يمثل إلى حد بعيد نمو الجماعة الإنسانية فى مراحل التاريخ ، وأن المراس الوظيفى للكائن يعمل على استمرار عملية النمو . كما أن انعدام المراس يوقفها . ويرى فروبل تشابهاً فى نمو الكائنات الحية مما دعاه إلى القول بأنها خاضعة كلها لقانون أزلى أبدى يهيمن عليها وهو خالقها .

ويصف فروبل الصغار بأنهم طبيعيون بسطاء ، وجاهر بأن الطبيعة البشرية منزهة عن الشر ، وأنها لا تحيد عن جادة الصواب . وقد آمن بحتمية ستغلال قدرات الطفل الطبيعية وإمكاناته فيدرس المواد المختلفة ليتأتى له النمو المتزن ، بدليل أنه صرح بأن تعليم الطفل الرسم لن يخلق منه فنانا ، وحفظه بعض الأغانى الخفيفة والأناشيد لن يخلق منه موسيقياً . وكل ما نهدف إليه هو أن نتيح للطفل الفرصة لينمو نمواً حراً طبيعياً هادئاً كما أراده الله ، ولهذا فلا يجب علينا أن نحمل الطفل على إتيان عمل لم ينبع منه تلقائياً ، أو وجدنا تبرما منه وإحجاماً عنه لأنه ضد طبيعته وبعيد عن فطرته .

---

(١) سعد مرسى إحمد : فروبل وفلسفته فى التربية ، ص : ٢١٥ - ٢٢٢

ولا يتفق فروبل مع روسو الذى قال بابعاد الطفل عن غيره ، كما أنه لا يسمح بترك الطفل لنفسه وسط غيره من الأطفال ، ولكنه يؤكد ضرورة الإشراف عليه والتأكد من أنه يوجد وسط ظروف ملائمة مناسبة . أما هؤلاء الذين يشرفون عليه فلا بد أن أن تكون لهم من المعلومات والخبرات ما يسمح لهم بتوجيه الصغار ومساعدتهم . بهذا يعمل فروبل على تحرير الطفل من النزعات الشريرة ومواطن الزلل ، ويعده ليكون مرشد نفسه . ويكون ذلك بتحريره منذ حداثته من الخضوع للقوانين الجائرة الخاطئة والقيادة السقيمة العقيمة .

ويتكلم فروبل فى كتابه « تربية الإنسان » عن القانون الأبدى الأزلى الذى يتحكم فى كل شىء ، ويرى أنه معبر عن نفسه فى مظهرين : مظهر خارجى وهو الطبيعة ، ومظهر داخلى وهو الروح . ويرى أن الله يسيطر على كل شىء وتتشكل مظاهر الطبيعة بأمره ، وتخضع له ، وتوجد باذنه فهو فيها وهى منه ، يخلقها كيف شاء . . ولكن الطبيعة ليست جسم الله . ويوجد عامل مشترك بين كل الكائنات . هو ذلك القانون الإلهى ، وهو أساس حياتها أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم فردية الشىء ، وفردية الشخص أو فردية الشىء هى هدفنا .

فعندما أقول إنى أربى شخصاً . فمعنى ذلك أننى أوقظ هذا الشخص وأتعهده على أنه كائن ذكى يفكر ويشعر بما يعمل ، وأنا أهيىء له الفرص المناسبة لينفذ ما يريد ، وما تمليه عليه مشاعره الداخلية دون أن أتعرض له بما يحد من نشاطه الحر أو أكبت فيه هذه الرغبة التلقائية الملحة .

فبالتربية والتعليم يفصح الإنسان عن نفسه لخير نفسه ، ويسالم الطبيعة ويؤكد المودة بينه وبين الله . . ، ويرفعه التعليم إلى درجة يستطيع فيها أن يعرف نفسه وغيره ويرفعه إلى حياة نقية طاهرة منزهة عن أدران الرذيلة ، ولكى يتم هذا التعليم فمن الواجب أن نعامل كل طفل حسب إمكاناته ، فلا يصبغ كل الأطفال بصبغة واحدة ، فان بينهم اختلافات فطرية .

ويقول فرويل إن الطفل طفل لا لأنه فى سن معينة أو لأنه لم يصل بعد إلى سن معينة ، ولـــكن لأنه يحيا بصدق بما تمليه عليه فطرته وما تتطلبه طبيعته . والشاب شاب لأنه عاش بنفس الصدق فى طفولته حتى استنفد مطالبها ، وانتقل إلى مرحلة تالية تتطلب مطالب أخرى .

ومراحل النمو ليست منفصلة ، ولـكنها تكون نمواً منسجماً متصلا فى ارتباط بديع يؤدى كل طور للذى يليه ، وتعتمد كل مرحلة على ما سبقتها من مراحل . ولهذا الاتصال صدى فى المواد التى يدرسها الطفل ، فان كل مادة دراسية لها معنى وقيمة بالنسبة لغيرها من المواد ، كما يوجد ارتباط آخر بين مختلف أنواع النشاط النفسى كالإدراك والإحساس والإرادة . وهذا الترابط يسمح لها بأن تعمل ككل منسجم منظم . لدينا إذن نوعان من الترابط : بين المواد المدرسية وهو ترابط خارجى ، وترابط بين مختلف المناشط النفسية وهو ترابط داخلى . وعلينا أن نربط بين الداخلى والخارجى ، أى ترتبط رغبته (الداخلية) للنشاط وأفكاره وإحساساته وإرادته بما يعمله خارجياً ، وهذا يعبر عنه فروبل بعبارة « جعل الداخلى خارجياً » أو « الخلق والابتكار » .

وينص لب نظرية فروبل على أن الطفل منذ وجوده فى العالم يخضع لقوى الطبيعة والكائنات الحية ، ويوجه الله هذه القوى ، وتظهر أقصى درجاتها عند الإنسان . وجسم الطفل يربطه بالكائنات البشرية والطبيعة ، أما قلبه وعقله فيربطانه ويجعلانه عضواً فى الجسم الأكبر وهو الإنسانية فى الماضى والحاضر والمستقبل ، ويعتمد كيانه كله وروحه على الله ، ومنه يستمد قوته ونشاطه وحيويته . وما دام الأمر كذلك فيجب على الطفل أن ينمو تحت تأثير الطبيعة ، ففيها سيجد الظروف الملائمة التى تمكنه من تعلم القوانين التى تتحكم فى كل الكائنات ، ويرى أنها تجاهد للوصول إلى درجة الكمال : ويلم بالقوانين التى تؤثر فيه . ثم يستنتج عن طريق عمليات الاستقراء الكثيرة أن القوانين الموجودة فى الطبيعة والتى تتحكم فيها أيضاً يمكن أن ترجع كلها فى مختلف مظاهرها إلى

قانون واحد ... وسيصل الطفل إلى محبة الله ، وأنه الخالق الأعظم القادر المتحكم المهيمن على الطبيعة وما فيها .

ويرى فروبل أن الوسائل التى تستخدمها الطبيعة لتنمية جسم الطفل هى حركة أعضائه واستغلال وتدريب حواسه . وأهم غرائز الطفولة هى غريزة الحل والتركيب وتبدأ بالتقليد ثم ينمو إلى الإبداع والابتكار . ويقترح تدريباً لكل حاسة من الحواس ، ويشجع الأسئلة التى يسألها الأطفال .

ويرى فروبل أن أهم سمة مميزة للطفل هى رغبته الفطرية فى النشاط أو ما يسمى باللعب ، وينصح بضرورة استخدام اللعب والغناء فى التعليم ... ولذا أنشأ رياض الأطفال وهى بيئات باسمة مرحة يجد فيها الطفل الألعاب والهدايا والحدائق للزراعة والحنو والارتياح ، ويجد فى لعب الأطفال مع بعضهم وتعلمهم عن طريق اللعب وسيلة للتعبير عن أنفسهم ، وبهذا ينمون . كما أنها وسيلة لتقريبهم من بعضهم البعض ومن الطبيعة ، ومن الله ، فينمو حبهم له ولا يعصون له أمراً .

وانتشرت رياض الأطفال فى دول أوروبا ، وفى أمريكا ، وبقية دول العالم ونقش اسم فروبل بالنور فى سجل التطور التربوى . ولو أن طرائق فروبل السيكولوجية طبقت فى مرحلة رياض الأطفال إلا أن أفكاره عن « النشاط الذاتى » و « النمو » كأفكار بستالوتزى عن « الملاحظة والتأمل » وفكرة هربارت عن « الاهتمام والميول » تغلغلت عميقاً فى العمليات التربوية إلى يومنا هذا . وقد ارتبطت فكرة فروبل عن النمو بطبيعية روسو ، فلم يقبل القول بأن الإنسان يولد مزوداً فطرياً بالشر .

وسارت المبادىء التربوية ، المؤسسة على دراسة نفسيات المتعلمين ، جنباً إلى جنب مع التقدم الصناعى والعلمى ، وزاد عدد سكان أوروبا خلال القرن التاسع عشر من ٢١٦ إلى ٣٥٠ مليوناً (١) بفضل زيادة الثروات والتقدم

(١) Bruuer, E. in : Readings in the Foundations of Education vol. I, p. 304.

الطبي . وطرأ تقدم كبير على العلوم الطبيعية وعلوم الأحياء ، وبان قصور واضح فى التعليم القديم والنزعة الإنسانية . واتجه النظر إلى محتوى المادة التى يدرسها التلاميذ ، ومدى ملاءمتها للتقدم العلمى . وشهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر اتجاهين فى :

١ — محتوى المادة التى تدرس .

٢ — إبراز قيمة الطريقة الاستقرائية وطرق تحصيل المادة .

وقد مهدت لهذين الاتجاهين آراء المربين ابتداء من روسو ونزعته الطبيعية وبستالوتزى ونزعته العلمية ولوك وتجريبيته . ولكن المواد الكلاسيكية ظلت تتمسك بصدارتها المناهج ، فكان من الصعب التخلى عن اللغات والرياضيات مثلا وظهر الصراع بين الاتجاه العلمى والتربية السائدة وقتئذ فى تحديد أن المواد أفضل للإنسان . ولهذا فقد فرق أنصار الحركة العلمية فى بداية الحركة بين المعرفة الآلية والمعرفة الإيجابية :

١ — المعرفة الآلية هى تلك التى تعنى بالوسائل للحصول على المعرفة ، كاللغات والرياضة . وهى تساعد الفرد على فهم النواحى الطبيعية والعقلية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والدينية ... إلخ . وهذه الوسائل تساعد الفرد على تنظيم حياته وإسعاد نفسه .

٢ — أما المعرفة الإيجابية فهى ترى ألا يمد الفرد بالمعارف فقط ولكن تمرن قواه العقلية حتى يتمكن من تحقيق أهدافه . وكانت الحركة العلمية فى بدايتها تؤمن بنظرية الملكات ولذلك فنادت بتدريب قوى العقل ، كل قوة مستقلة .

وكان لابد للاتجاهات السائدة فى أوروبا فى منتصف القرن التاسع عشر أن تؤثر فى التفكير التربوى . فصار عند جماعة العلميين تفسير جديد لمعنى « الدراسات العقلية الحرة » . وارتبطت الدراسة الحرة بقيمتها من الناحية العملية ، وهى التى تعد الإنسان لحياته كمواطن مستنير ، فالرجل فى مهنته صاحب أفق يتعدى ما يتصل بالمهنة ، متغلغلا إلى تأثيره فى المجتمع . ولكى

يكون مواطناً مستنيراً فانه يتعلم أصول المهنة إلى جانب إلمامه بمواد أخرى تعمل على نجاحه فى مهنته ، وقد تكون هذه المواد لغات وآداباً وفنوناً .

وبدأ يتطور مفهوم التربية الحرة ، فهى تربية تهيء الفرد لحياة سعيدة حرة فى مجتمعه ، تربية ليعمل ويتجاوب اجتماعياً عن فهم وذكاء مع غيره ، ويسهم بقدر إمكاناته فى الحياة الاجتماعية .

ولعل خير من يمثل الحركة العلمية هو هربرت سبنسر .

سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠ — ١٩٠٣)

وقد دخل سبنسر باب التربية بمقال عن « أى معرفة أكثر قيمة » .

وكتب هذا الفيلسوف الإنجليزى ثلاث مقالات متتابعة عن التربية العقلية والخلقية والجسمية مؤكداً أهمية إدخال الدراسات العلمية فى المنهاج ، ومهاجماً الاهتمام بالدراسات الإنسانية . وقد عرف سبنسر التربية بأنها إعداد للحياة الكاملة ولذلك فهمه من المواد ما يوصل إلى هذه الحياة ، كما يؤكد أهمية الطرق التى تدرس بها هذه المواد . ويقول سبنسر إن تخير هذه المواد يجب أن يتم بعناية ، فلا يخضع (لموضة) العصر أو لرأى أولياء الأمور ، بل يكون معيار الاختيار هو تحقيق الحياة الكاملة . ويقسم سبنسر أهم مناشط الحياة حسب أهميتها إلى :

١ — مناشط تؤدى إلى حفظ الذات مثل تعلم الفسيولوجيا والصحة والطبيعة والكيمياء .

٢ — مناشط تحقق المطالب الضرورية للإنسان وهذه بدورها تؤدى إلى حفظ الذات ، مثل تعلم العلوم التى تساعد على كسب القوت .

٣ — مناشط تؤدى إلى حسن تربية الأطفال كتعلم الصحة وعلم النفس .

٤ — مناشط تعمل على إيجاد وإبقاء العلاقات الاجتماعية والسياسية .

٥ — مناشط صالحة لقضاء وقت الفراغ مثل تعلم الأدب والفن وعلم الجمال وهذه لها منزلة كمالية .

ويرى سبنسر أن المواد العلمية أصلح المواد لحفظ الذات كالصحة مثلا ،

بل هى أصلح المواد لمختلف المناشط ، فهى ضرورية ليعمل الإنسان وبذلك يحقق مطالب الحياة الضرورية ، وهى صالحة فى تفهيم الآباء كيف يربون أطفالهم . وهى لازمة لتوضيح أصناف السلوك المناسبة وضبطها ، وهى مؤدية إلى تفهم الفن والاستمتاع به ، بل هى أساسية فى التربية العقلية والخلقية والدينية .

ويلقى سبنسر اهتماماً واضحاً على التربية الخلقية ، ويعارض روسو فى رأيه عن الجزاء ، ويتفق معه فى ضرورة أن يتعلم الطفل بطريقة طبيعية .وفى التدريب العقلى يتفق سبنسر مع جمهرة علماء النفس فى وقته فينصح بتقوية قوة الملاحظة ، واستخدام المحسوسات فى التدريس ، ويؤكد أهمية استغلال الشدة فى العملية التعليمية .

وهوجمت آراء سبنسر بأنها نفعية استغلالية ، كما أنها إعداد للحياة وليست مؤدية إلى الحياة ذاتها . وفى هذا الهجوم تلاعب بالألفاظ ، فانه يقف فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر جامعاً بين الاتجاه العلمى والاتجاه الاجتماعى . فمواد الدراسة التى يقترحها شاملة على ما يفيد الفرد كفرد وكعضو فى جماعة .

وانتشرت آراء سبنسر ، ويلوح أنه كان خير الفلاسفة التربويين الإنجليز فى القرن التاسع عشر . وعبرت آراؤه وأفكاره المحيط الأطلسى كما عبرته فى السابق آراء غيره من الفلاسفة الأوروبيين إلى الأرض الواسعة الغنية .

* * *

تأثرت المدارس الابتدائية الأمريكية بآراء بستالوتزى التربوية . فقد هاجر إلى أمريكا واحد ممن درسوا على بستالوترى هو نيف Honeff عام ١٨٠٦ وتكلم عن بستالوتزى وآرائه وشرح فهمه عن التربية أنها تفتح تدريجى لقوى الإنسان واقترح عديداً من الخبرات يتعرض لها الأطفال فى المدارس الابتدائية وطالب باستخدام المحسوسات فى تعليم الأطفال (١) ، كما تغلغلت آراء

(١) Butts and Cremin : A History of Education in American Culture, p. 219.

هربارت عن الميول والاهتمام فى المناهج الأمريكية ، وأخذ المربون الأمريكيون من فروبل فكرة النشاط الذاتى والمشاركة الاجتماعية ، كما تأثروا باتجاه سبنسر فى اهتمامه بالعلوم .

وتكلم المربون الأمريكيون فى منتصف القرن التاسع عشر ، ولعل أبرزهم شيلدونSheldon وفرنسيس باركرParker ، عن الطفل كمحور للعملية التربوية وقد تأثر شيلدون كثيراً بآراء بستالوتزى فصمم مناهج المدرسة الابتدائية بحيث تدور حول موضوعات محسوسة ، ففيها دروس عن الأعداد والأحجام والأشكال والرسم والألوان والأوزان والأصوات والأماكن والحيوانات والنباتات والمعادن والسوائل وبدلا من أن يعطى الأطفال مواد دراسية محددة ، عرضهم لخبرات مباشرة ، وعن طريق احتكاك الطفل بعناصر البيئة ودراستها وملاحظتها تتكون المادة العلمية ، وهو يشتقها ولا تلقى إليه من الراشدين .

ويذكر باطس وكريمن أن باركر أخذ خير ما عند بستالوتزى وفروبل وهربارت فى تكوينه لعقيدته التربوية . فقد أخذ من بستالوتزى وفروبل الاهتمام بالطفل وجعله مركز العملية التربوية ، ومن هربارت فكرة الربط ، وقد أدى احتلال الطفل هذه المكانه إلى زيادة الاهتمام بدراسته علمياً ، وكان هذا شغل المربين والنفسانيين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وظل ينمو مع السنين وأصبحت المناهج تصمم بحيث ترضى حاجات الأطفال واهتماماتهم وقدراتهم (١) .

وقد أدى هذا الاتجاه عند بعض المربين الأمريكيين فى نهاية القرن التاسع عشر إلى الاهتمام بالتدريب اليدوى فى المدارس الابتدائية ، على أساس أن هذا التدريب مفيد لنمو القدرة العقلية . وكان هذا الاتجاه (الجديد) مثيراً لجدل كبير بين معسكرين : معسكر أنصار (الطفل محور العملية التربوية) ، ومعسكر أنصار (المادة محور العملية التربوية) . وقد أصدرت رابطة التربية الأهلية National Education Association عام ١٨٩٣ تقريراً عن مناهج

(١) Ibid, pp. 382 - 383

المدارس الابتدائية (وكانت ثمانى سنوات) وهى : النحو والأدب والحساب والجغرافية والتاريخ . وحول هذه المواد الخمس تتركز التربية فى المدرسة الابتدائية ، وتدعم هذه المواد بدراسة الأطفال عن الرسم (الصناعى والفنى) ومشاهد الطبيعة (لتدريب عادات الملاحظة) . وعلم وظائف الأعضاء ، والصحة ، والموسيقى ، والجبر ، والثقافة الدينية . والأخلاق . ووزعت لجنة من أعضاء رابطة التربية الأهلية هذه المواد على سنى المدرسة الابتدائية الثمانية ليدرسها كل طفل . ووصف بتلر مدير جامعة كولومبيا تقرير الرابطة بأنه كان متجهاً فى نظره إلى الخلف وليس للمستقبل .

وتدخل جون ديوى فى حومة النزاع قائلا إن المشكلة لا تحل بأسلوب « إما هذا أو ذاك » ، إما الطفل وإما المادة ، وأعلن رأيه فى كتابه « الطفل والمنهج » عام ١٩٠٢ . وبسط ديوى المسألة فى أسلوب حكيم ، فتناول الطفل فى جانب ، والأهداف الاجتماعية وقيم الراشدين فى جانب آخر . ورأى أن المسألة مسألة « تأكيد » ، فمدرسة تؤكد المادة وتهتم بها على حساب خبرات الطفل على زعم أن الاهتمام بميول المتعلمين يؤدى إلى السطحية فى العملية التعليمية ؛ أما المدرسة التى تدور حول الطفل ، فهى ترى المتعلم بداية ومركز ونهاية العملية التعليمية ، وترمى إلى أن يحقق الطفل ذاته لا أن يكتسب بعض المعلومات والمعرفة ، وبينما تهتم المدرسة الأولى بالنظام ، تؤكد الثانية الاهتمام والميول .

وماذا رأى ديوى ؟

لكن قبل أن نتحدث عن ديوى نعود إلى الشرق العربى فى القرن التاسع عشر .